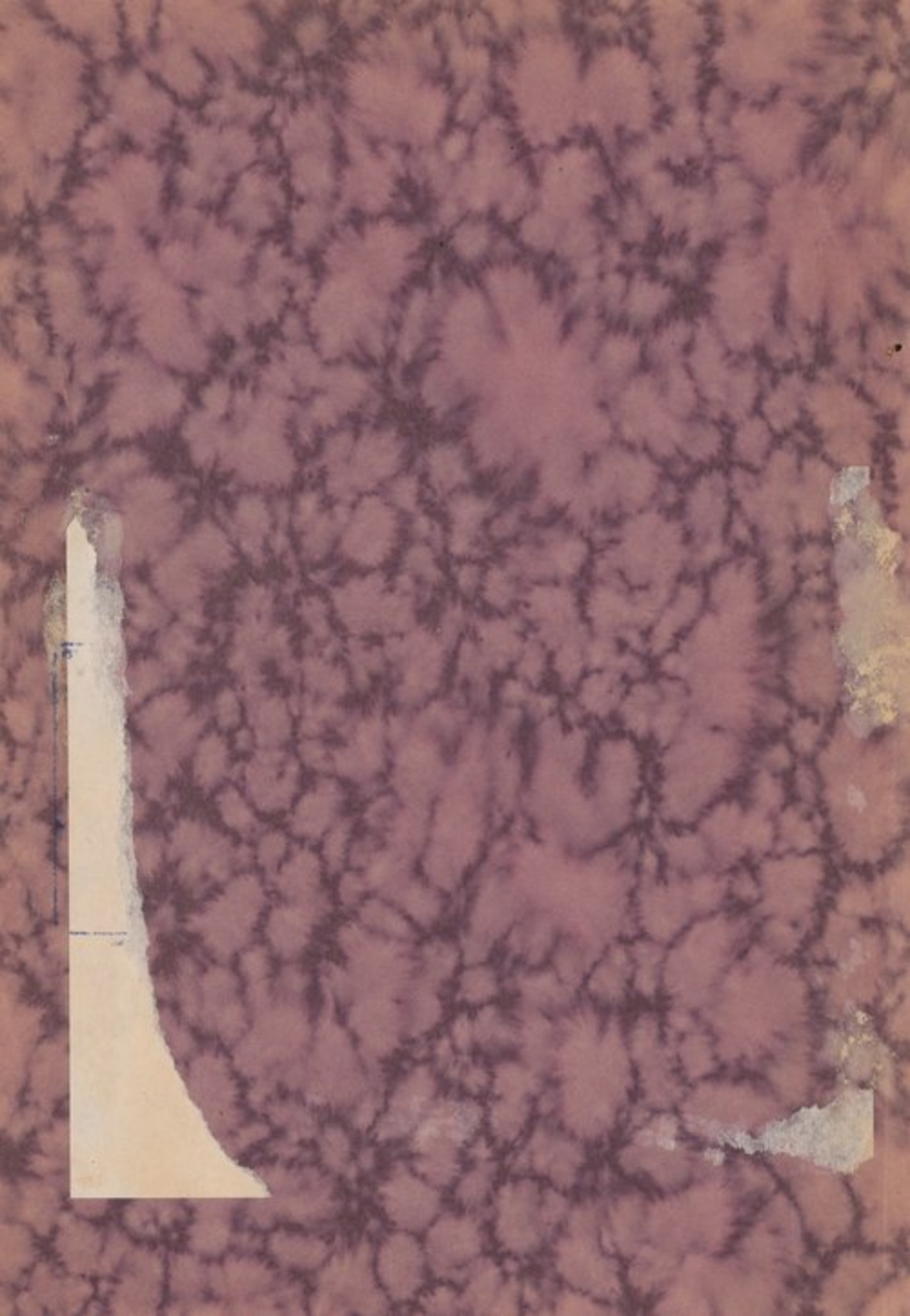

LIBRAIRIE BOUSTANY BEYROUTH
مكتبة البستاني ساحة البرج بيروت
892.78
G4145dA
c.1

دفاع

الابن عن شرف ابيه

بقلم

الخوري مارون غصن

جميع الحقوق محفوظة للمطبعة

58564

بيروت
المطبعة الكاثوليكية
١٩٢٧

Cat. Sept. 1942

الى

الأبناء الأبرار أقدّم روايتي هذه، فيرون فيها مثال الدفاع عن شرف الآباء.

الخوري مارون غصن

دفاع الابن

عن شرف ابيه

١

غرفة صغيرة للطعام، صغيرة ليس فيها من الفرش إلّا اللازم اللازم، أي: خزانة، مائدة واربعة كراسي؛ قرب النافذة مخياط (مكنة)، والى جانب هذه الغرفة، حجرة للنوم، فيها سريران، أحدهما صغير فيهِ طفل نائم.

في ذلك الحين، كان ربُّ البيت، أمين الحكيم، يتناول طعام الغداء، وامرأتهُ مريم جالسة إزاءهُ تسمع حديثه.

كان «أمين» هذا أمينَ الصندوق في محلّ تجاري يخصّ السيد أسعد قاهر.

كان جيران هذه العيلة الصغيرة يغبطون حسن عيشها ويقولون: «هي، حقًّا، عيلةٌ مباركة، لا ينقصها إلّا أن تكون صحّة أمين جيدة.»

نعم كان أمين ضعيف الجسم لكثرة الاتعاب التي عاناها في حياته.

كان يحدّث امرأته بصوت منخفض كي لا يوقظ الطفل، ويقول:

— تمثّلي، يا عزيزتي مريم، تمثّلي هيئة السيد أسعد حين أخبرتهُ أن الصندوق قد فُتح وسُرق. ما سمع هذا حتى انتفض وقال :

— الصندوق؟ فُتح؟ وسُرق؟ هذا مُحال!

أريتهُ الاقفال المكسورة .

جاء البوّاب، وهو رجلٌ مسنّ، وأخبر السيد اسعد أنهُ أتى، كعادته، في الساعة السادسة صباحاً، فوجد باب المحلّ مفتوحاً، ورأى رجلين راكضين، وقد حجبا وجهيهما، ولمّا ابتعدا، التفتا اليهِ وقالا : «سلّمْ على السيد اسعد قاهر وسلْ لنا عن صحّتهِ!» وإنهُ، أي البواب، أسرع ليستقدم رجال الشرطة؛ ولكن كان اللصّان قد تواريا عن العيان.

كانت هيئة البواب تدلّ على أنهُ صادق في ما يقول .

أمّا السيد أسعد، فلم يُردْ أن يصدّق شيئاً من ذلك؛ بل كان يردّد عبارتهُ الاولى ويقول : «هذا مُحال! مُحال!»

قالت مريم :

— ماذا عمل بعد ذلك؟

— ماذا تريدين أن يعمل؟ جاء مفوّض الشرطة، فحص باب المحل والصندوق، وطرح عليّ عدّة أسئلة .

قالت مريم:

— ما هو المبلغ المسروق؟

— ثمانمائة ليرة ذهباً.

— مبلغٌ كبير! ولكن هل يؤثّر فقد هذا المبلغ في ماليّة السيد اسعد؟

— قد مرّ عليّ في خدمتهِ ثلاث سنين؛ وفي كل سنةٍ لم ينقص ربحهُ عن خمسة آلاف ليرة.

— إذن لا يمرُّ عليهِ حين، حتى يُعاض ممَّا سُرق لهُ.

— نعم، ولكن ما عساهُ أن يُسمعنا، بعد الان، من الكلمات الجارحة؟ أظنُّ انهُ يسعني، من الان، أن أقطع الرجاء من الحصول على الحلوان الذي اعتاد أن ينفحني به في رأس كل عام.

— إذن هو شديد الحرص على ماله؟

— نعم، ومشهورٌ بسهرهِ وتضييقهِ على الكتّاب والعمّلة، ويشتغل من الصباح حتى المساء، كي لا يفوتهُ أقلّ ربح. هو في ذلك غير ملوم... قد دنا وقت الرجوع الى المكتب. لا يحسن بي، وخاصّةً في هذا اليوم، أن أصل متأخرًا.

خرج امين الى الحجرة الثانية ماشياً على رؤوس قدميهِ، وقبّل وجهَ طفلهِ وناجاه قائلًا:

— الى المساء، يا عزيزي وديع! الى المساء!

كان الطفل جميل الصورة، بهيّ الطلعة.

صافح أمين زوجتهُ وقال:

— الى المساء، يا عزيزتي مريم!

— عجّل، عند إنتهاء عملك، في الرجوع الينا توًّا... لا تشغل بالي...

— أشغل بالكِ؟ من أيّ شيء؟

— ألا ترى أن السيد اسعد سيظن اليوم في كتبتهِ الظنون؟

ضحك أمين وقال:

— هذا وهمٌ منك! نعم هو قاسٍ جافّ؛ لكنهُ ليس بمجنون!... الى اللقاء!

— بحياتكَ! لا تتأخر في الرجوع مساء!

— نعم، فكوني مطمئنة القلب.

كانت تلك الزوجة الشابة، قلقة الخاطر، خائفة أن يتهم اسعدُ زوجها. نعم هي عارفة أن زوجها أشرف وأكبر من أن يُساء به ظنّ؛ لكنّ السيد اسعد قاسٍ، عنيد، إذا دخل الشكُّ قلبهُ، فهيهات أن يخرج منهُ.

أسرعت مريم للقيام بحاجات البيت، وكانت حيناً بعد حين، تطلُّ على طفلها نائماً، وتناجيهِ قائلةً:

— أما أنا مجنونة، يا عزيزي «ودُّوعه»، في استسلامي لهذهِ الاوهام؟ أيّ شرّ نخشى، وأنت هنا، يا ملاك البيت وحارسه!

دقّت الساعة الرابعة، وقُرع الباب.

كان القارع زوجها؛ عاد قبل الموعد، يصحبهُ ثلاثة رجال، دخلوا وأخذوا يبحثون في البيت، في الخزانة، في السرير، حتى سرير الطفل فتّشوهُ.

فسألت زوجها:

— ما معنى هذا التفتيش؟

سكّن روعها وقال:

— لا تخافي! هي أمور قانونيّة.

ما هو غير حين، حتى انتهى الرجال من التفتيش، وخرجوا صُفر الايدي، وساقوا أميناً أمامهم.

فاضطرب قلب مريم، وأدركت أن اسعد قد اتّهم عُمّالهُ، وأنّ أولئك الرجال الثلاثة هم شُرَط، أتوا ينقّبون عن المسروق، فلم يجدوا شيئاً.

***

دقّت الساعة السابعة، ومريم عند سرير طفلها، تكاد تختنق غمًّا. كان الطفل قد استيقظ وأخذ يبسم لكلّ شيء ويملأ الغرفة من لطيف زقزقتهِ.

قُرع الباب، فهتفت مريم:

— أتى! لم يتأخر.

أسرعت وفتحت، فعراها الذهول واليأس، اذ رأت أحد أصحاب زوجها، وما هو من عمّال أسعد قاهر. فقال لها بصوتٍ حزين:

— خبرٌ مكدّر، يا سيدتي: انّ السيد اسعد قاهر يظنّ أنّ أميناً ...

فقطعت عليه الكلام، قالت:

— يظن زوجي سارقاً! وقد قُبض عليه؟...

— نعم، ولكن لا تغتمّي. أمين كاسمهِ أمين. نحن كلّنا متأهبون للدفاع عنهُ! فغداً يُخلّى سبيلهُ.

صُعقت مريم لهذا الخبر، وسقطت على الكرسي.

فصرخ الطفل، فنهضت مسرعةً اليه وقالت:

— نعم، نعم، يا ولدي العزيز! لا يجوز لي أن استسلم للحزن! عليَّ أن أتشدّد وأتقوّى حبًّا لك، وأن أدافع، أنا ايضاً، عن أبيك وأردّهُ عليك!

***

مضى شهران، ولم يحظَ البيتُ برجوع مَن كان يجهد النفس قياماً بمعاش زوجتهِ وطفله.

لم يُخلَ سبيل امين، وها هو الان ماثل أمام القضاء، فان رجال الشرطة لم يُوفّقوا في القبض على السارقين.

حدث أن عثروا على خلل طفيف في دفاتر امين، خللٌ لا يُثبت على امين جرماً؛ لكنَّ السيد اسعد اتخذ ذلك أساساً لإقامة الدعوى. لم يكن

ذلك الخلل سوى دفعة صغيرة نسي امين أن يُثبتها في دفاتره ؛ اعترف امين بذلك الغلط وطلب أن تُحسم تلك الدفعة من أجرته . لو أن ذاك الخلل وقع مع غير السيد أسعد، لأمرَّ عليهِ الاسفنجة ، فهو خطأ ماذي يتَّفق لكل انسان أن يقع فيهِ .

كل ذلك المبلغ لا يتجاوز مائة غرش ؛ لكنَّ السيد اسعد كان — كما سبق الكلام — صعب المراس عنيداً ، لا يثنيهِ شيء عن عزمهِ ، فلم يُردْ أن يُعَدَّ مُخطئاً في ظنه ، وأبى التسليم بأنهُ ككل إنسان معرَّض للخطإ .

كان قد رفع أمر امين الى المحكمة معتقداً أن كاتبه هذا مذنب ؛ وبرهانهُ أن أميناً قد سرق ذاك المبلغ الزهيد ، وأن لا يبعد ان يكون قد سرق غيره ، ثم توصل بعد ذلك الى سرقة الثمانمائة ليرة .

نظرت المحكمة في الدعوى ، فحكمت ، باتفاق الاراء ، أن أمين الصندوق بريء ، اذ لم تجد دليلاً على ثبوت خيانته . وجميع كتَّاب المحل شهدوا باستقامة المدَّعى عليه ، فلم يسع القضاة أن يتردَّدوا في ردّ الدعوى .

عاد امين الى بيته ، وصافح امرأته ، وقبَّل جبين طفله . لكنَّ تلك التهمة أثَّرت في صحتهِ الضعيفة تأثيراً سيئاً . فأخذ جسمهُ ينحل ويهزل . وما مضى على ذلك شهران ، حتى قضى نحبهُ ، تاركاً أرملة ويتيماً لا معين لهما .

للطفل « عرَّاب » يُدعى السيد شفيق المعلم ، وهو شيخٌ جليل ، وذو قلب شريف . كان ، مدَّة غياب الاب ، يسدُّ مسدَّهُ ويقوم بحاجات الامّ والطفل .

لم يكن هذا العرَّاب من عامَّة الناس ، بل عالماً ، أدَّت به مباحثهُ الطويلة الى عدَّة اكتشافات علميَّة .

بعد موت امين ، ذهب « العرَّاب » لمقابلة السيد اسعد قاهر ، وبذل وسعه ليقنعهُ بأنهُ هو المسبِّب لذاك البؤس الذي نزل بتلك الارملة وطفلها ،

وأراه بكل جلاء، ما يجب عليهِ من التعويض، قال :

– أنت ملتزم بمساعدة هذين البائسين. قد حرمتهما مُعينهما الوحيد، فينبغي لك أن تقوم مقامه. أنا قد أعددت لتلك المسكينة مبلغاً من المال يُعينها على فتح مخزن صغير؛ لكنَّ هذا المبلغ غير كافٍ، وليس لي الان وصول الى غيرهِ. فتكرَّم بأن تُضيف اليهِ مبلغاً يعادلهُ. وإن ما تتكرَّم بهِ الان أردهُ عليك، اذا شئت، وأنا اتكفّل بهِ...

لم يلنْ قلب أسعد، بل زاد رسوخاً في عنادهِ، فقال :

– أنا لا أُخدَع ولا أُغش. ولا آذن لاحدٍ، أيّاً كان، أن يلومني أو يزعم أني أخطأت في ما صنعت! إن أجبت طلبك، أكن كأني قد سلّمت بما ترعم. لا، لا أستطيع!

ابتسم «العرَّاب» إبتسامة فيها من الشفقة على أسعد فوق ما فيها من الإنكار لعنادهِ، وقال :

– أنا ماضٍ، وساعٍ للحصول على ما ترفضهُ أنت. نعم، أنا أدفع عنك؛ ولكن لا بدَّ أن تدفع، أنت نفسك، ذلك المبلغ! أسامعٌ أنت؟ لا بدَّ من أن تدفع هذا المبلغ، أنت نفسك، عاجلاً أو آجلاً!

قال هذا، وخرج.

لمّا كان الغد، دفع العرَّاب الى الارملة جميع المبلغ اللازم لفتح مخزنٍ صغيرٍ، في شارع...، تُباع فيهِ صورٌ وتماثيل وأوانٍ كنسيّة.

عكفت مريم على تلك المتاجرة الصالحة، ولبثت فيها اربع عشرة سنة، فرافقها النجاح، وجمعت ثروةً تكفيها هي وولدها.

لكنَّ كثرة الاهتمام والاعمال أدَّت بها الى النحول. فاشار عليها العرَّاب بترك العمل وقال لها :

– أنتِ الان في حاجة الى الراحة والهواء الطلق.

لكنَّ نصيحة العرَّاب جاءت متأخرة : الارملة المسكينة كانت قد جُرحت في قلبها جرحاً لا تشفيهِ الراحة ولا يُزيلهُ نقيُّ الهواء. فكأن تلك القوَّة التي أعانت مريم على العيش أربع عشرة سنة ، بعد زوجها ، لم تكن إلَّا من أجل إعداد مستقبلٍ لوحيدها .

أمَّا الان ، فقد كبر وديع وصار في أمنٍ من جهة معاشه ، وعادت الامّ غير قادرةٍ على العمل . . .

إنطلقت الى المدينة . . . ، واشترت ، هناك ، في ضواحي القرية . . . ، على ضفات النهر . . . ، منزلاً صغيراً ، يُدعى « البيت الاخضر » ، لكثرة الاشجار المحيطة بهِ .

قالت لابنها :

— سأُطلعك فيما بعد على السبب الذي من أجلهِ فضَّلتُ السُكنى في هذه الناحية .

وخلت بهِ يوماً وقالت :

— أصغ اليَّ ، يا عزيزي وديع : شئتُ أن أسكن في ضاحية هذه القرية لانها غير غريبة عنك . نعم ، أنت تعرف هذه البريَّة ، وقد طالما تنزَّهت فيها ، وجُلتَ حول معمل السيد أسعد قاهر ، ودخلت حديقة قصره . . . هذا القصر ، هذا المعمل ، وقسم كبير من هذه الاراضي والغابات ، يخصُّ الشخص الذي أقام الدعوى على أبيك ، وأماته . . .

أجاب وديع :

— نعم ، قد فهمت أن أسعد قاهر هو الشخص الذي تعنيهِ بكلامك .

— ولكن هل عرفتَ ما جئتُ أصنع هنا ؟

— لا ، يا أُمي . لم أجسر على أن أسألك عنهُ .

— ها أنا ، يا ولدي الحبيب ، أُطلعك عليه . . .

تنهَّدت الام المريضة، وكشفت لولدها ذاك الداء الدفين، الذي عجَّل في تقريبها من الموت، قالت:

— قد مرَّ على وفاة أبيك ١٨ سنة. في طول هذه المدَّة لم أستطع نسيان سبب موته.

آه! ما أتيتُ الى هنا طلباً للانتقام، اذ لا يجوز للانسان أن ينتقم أصلاً؛ لكنني شئت أن لا ينسى الجلَّاد ضحيَّته، فجئت لاذكِّره بها.

أردت أن يذكر، كما نحن نذكر، وأن ينتهي بهِ الامر الى أن يندم على خطاهِ، بل على جريمتهِ. أردتُ أن يُقرَّ بأنهُ خُدع، ويذيع على رؤوس الاشهاد أنني لست أرملة لصّ، وأنك لست ابن خائن! فلم أحصل على ذلك: ان الجلَّاد لا يزال صخريَّ القلب. لمَّا عرف بوصولنا، بذل جهده ليضطرني الى الرجوع؛ لولا أن مدير هذه الناحية رجلٌ صالح، لنجح الجلَّاد في مسعاه. قد بقينا هنا لاقوم بما يجب عليَّ؛ لكنني لم أُوفَّق. وها أنا، يا ولدي العزيز، أترك لك ذاك الواجب، وأؤمل أنك ستقوم بهِ، فتُلزم اسعد قاهر بأن يُعلن براءة أبيك... أنا أقول لك ما ينبغي عمله للوصول الى ذلك...

وتنهدت الارملة المريضة، وقالت بكل عناء:

— لا تُضع وقتك منتظراً أن يلين قلب أسعد، فهو رجل ليس في صدرهِ قلب، بل حجر؛ لكنني أعرف شخصاً آخر يمكنهُ أن يُلين ذلك القلب: لهذا الجلَّاد فتاة عمرها ١٦ سنة، فهي أصغر منك قليلاً، صالحة كاملة الاخلاق. رأيتها يوماً مارَّةً من هنا، فقلت في نفسي: كيف يُرسل الله مثل هذا الملاك الى مثل ذاك الضاري!

الى هذه الفتاة ينبغي لك أن تنظر، فبها يمكنك أن تستعين للقيام بما أوصيتك بهِ. أنت لا تستطيع الدنوّ منها، لان اباها لا يأذن لك، لكنَّ في السماء عدلاً؛ لا بدَّ لهذا العدل من أن يساعدك يوماً على المثول أمام ابنة

الجلّاد ؛ حينئذٍ ، ذكرى أبيك توحي اليك بما يجب عليك صنعهُ . . . وداعاً ، يا وديع ! وداعـاً ، يا ولدي الحبيب ! ها أنا أفـارقك ؛ لكنّي ألبث دائماً في قربك ، وأذكرك ، دون انقطاع ، بأنهُ يجب على الجـلّاد أن يندم ويطلب السّماح .

بعد يومين ، شيّع وديع جثمان أمهِ الى المقبرة .

كان للفقيدة خادمـة مُسنّة صالحة ، تُدعى راحيـل ، أتت معها من المدينة . . . فبعد أن دفنت سيدتها ، قالت لوديع :

— لم يبق لوجودنا في هذا البيت مُعزٍّ ؛ فلنعدْ الى المدينة .

اجابها وديع :

— لا ، بل يبقى هنا سكني : إن عليَّ واجبـاً أوصتني أُمي بقضائهِ ؛ ولا بدّ من مواصلة السعي للقيام بهِ . وما كنت لأخالف وصيّة أُمي الاخيرة ؛ أنا أودّ أن تكون في قبرها راقدةً بسلام . سأعود الى المدينة ، متى قمت بما عليَّ .

ما كان الغد ، حتى بدأ وديع يسعى للنهوض بالواجب .

كان كل يوم ، صباحاً مساء ، يذهب ويطوف حول القصر .

مرّت أشهرٌ ، ولم يتوصّل وديع الى رؤية الفتاة : فانها ، وأباها ، كانا في المدينة . . . يقضيان فصل الشتاء .

أتى الربيع ، فعاد اسعد وفتاته .

أخبروه ان وديعاً كان يأتي كل يوم يطوف حول القصر ويدخل الى مخارف الحديقة . فأمر الجلّاد بأن يطردوه طردًا ، وأن يستعينوا بالعصا ، اذا اقتضى الامر .

كان اليتيم نحيل الجسم ، فقد ورث الهزال عن ابيهِ ، ونشأ في حجر أُمه ، فخاف . تذكّر العلاقات القليلة ، التي كانت لهُ مع صبيان القرية ، وكيف كانوا يضحكون من سذاجة قلبهِ ، ويستضعفونه ويضربونهُ . . .

خاف، ولكن كان عليهِ أن يقوم بما وعد بهِ أمّهُ، فعاد يتنزّه حول القصر.

في ذات يوم، بينما هو يتمشى في مخـارف حديقة القصر، صادف أحـد خدّام الاسطبل، وهو شابّ علجٌ قوي، فصاح الخادم:

— أنت هنا، يا وديع! انتظر، أعلمك أمرًا!

هجم عليهِ وأخـذ يضربهُ ضرباً شديدًا، وهو عالم أن سيدهُ لا يغتاظ من ذلك، بل يكون راضياً. ثم دفعهُ بكلتا يديهِ، فسقط في حفرةٍ هناك.

لمـّا أفاق من غشيانه، رأى أمامهُ فتاةً تمسح الدم عن وجههِ، وتنشقهُ بعض المنعشات. ثم أمرتِ الحوذي، فأتى بالمركبـة، وأوصل وديعاً الى «البيت الاخضر».

عرف وديع من الحوذي ان تلك الفتاة الصالحة، تُدعى عفيفة، وهي ابنة السيد اسعد قاهر، صاحب القصر.

أظهرت عفيفة، ابنةُ الجلّاد، نحو وديـع شفقةً وعنايةً عظيمتين، فجعلتهُ ينسى إساءةَ الاب ويفكّر في حنان فتاته.

عند المساء تأمل وديع في صورة أمهِ، المعلّقة في عنقه، وناجاها قائلًا:

— أماه! كيف يسعني، بعد الان، أن أقوم بالواجب الذي أوصيتني بهِ، وهـا ان هذه الفتاة قد كبّلتني بهذا المعروف... أيسعدني الحظّ يومـاً بأن أقابل صنيعها بصنيع مثلهِ، وأفي دَينها عليَّ؟

خيّل اليهِ ان تلك الصورة تقول لهُ:

— نمْ بسلام! دع العدل الالهي يدبّر ما يشاء... فهو ناظرٌ وعارف...

كان وديع صديقاً لمدير محطّة السكة الحديدية في تلك القرية، وهو رجل ذو أخلاق فاضلة، ومن المدينة... وطن وديع، واسمهُ حبيب السيّار. ذهب وديع يوماً لزيارتهِ، ولمّا وصل الى المحطّة، رأى مركبةً فاخرةً، فعرفها وعرف الحوذي. فناداهُ هذا وقال لهُ مبتسماً:

— هل عرفتَ هذه المركبة؟

— نعم عرفتها، فهي التي، بعد ذلك الحادث، حملتني الى «البيت الاخضر»... من تنتظر هنا؟

أجاب الحوذي:

— انتظر سيدي، أسعد قاهر، وسيدتي عفيفة، فتاتهُ، فانهما يصلان الآن في القطار الاتي من المدينة... ولكن أنصحك أن تنقطع عن التنزّه حول القصر...

فتنهّد وديع وقال:

— أشكر لك نصيحتك.

مضى وديع مخنيَّ الرأس، وأخذ الطريق المؤدية الى القرية، ثم ارتدَّ فجأةً واتّجهَ الى تلك المخارف المحرّمة عليهِ، وقال:

— مهما يكن، فأنا لست أنثني عن السعي وراء القيام بوصيّة أمي. قد قالت لي: «دع العدل يدبّر ما يشاء.»

وصل وديع الى الحفرة التي أسقطهُ الخادم فيها، ونشلتهُ منها عفيفة، فجلس هناك على حافتها، تحت شجرة كبيرة، وقال في نفسهِ:

— أريد الآن أن تعرف اني ذاكرٌ لجميلها عليَّ.

بعد حين، سمع صفيرًا، فهتف:

— وصل القطار!

مـا مرَّ غير بضع دقائق ، حتى سمع زمّارة المركبـة ، فنهض واقفاً وقال :

— يجب أن تراني !

مرَّت المركبة .

كان فيها أربعة أشخاص ، عرف منهم شخصين : السيدة عفيفة وأباهـا ؛ أمَّا الشخصان الآخران ، وهما سيدة كهلة وشابّ ، فلم يعرفهما .

عنـد مرور المركبة حسر وديع عن رأسهِ وسلّم بكل احترام ؛ ولكن لم يردّ السلام عليهِ أحد . السيدة عفيفة نفسها لم ترذاك الذي كان واقفاً هناك من أجلها .

فـابتعد وديع على مهل ، وفي قلبه ألمٌ أشدُّ من الالم الذي شعر بهِ ، يوم رماه خادم الاسطبل في الحفرة .

لمـّا بلغ آخر مخارف الحديقة وكاد يأخذ طريق القرية ، صادف صديقهُ حبيباً ، مدير المحطّة ، وقد أتى يروّح النفس .

كان حبيب هذا صديقاً للمرحوم ، امين الحكيم ، وقد عرف المأساة التي ذهب فيها أمين ضحيّة أسعد قاهر ، فقال لوديع :

— أنت آتٍ من القصر ؟

— بل من مخارف الحديقة .

— لا بدَّ أن تكون رأيت السيد أسعد قاهر وفتاته .

— رأيتهما في المركبة . . . ومعهما شخصان آخران لم أرهما قبل الان .

— نعم ، هما السيدة سلمى الناجح وابنها شكري . هذه هي المرَّة الاولى التي يأتيان فيها الى هذه القرية . أنا أعرفها ، وكنت اتوقّع مجيئها الى القصر .

نظر وديع الى حبيب مستفهماً ، فقال حبيب :

— ان السيد اسعد حدّثني طويلاً، قبل سفره الاخير، ولا سيّما عن الشابّ شكري... لا ريبَ أنها سيلبثان في القصر الى يوم عقد الزواج .. ان السيد شكري، هو خطيب الآنسة عفيفة...

هتف وديع :

— خطيبها... ستكون عروساً لهُ...

— نعم، في الشهر الآتي . سيكون العرس في القصر، فتُقام فيهِ حفلات حافلة، وسيأتي المدعوّون من المدينة... في قطار خاصّ...

انقبض وديع لهذا الخبر، وحزن لأنّ عفيفة ستتزوّج وتغادر هذه البلاد لتتبع زوجها...

قال في نفسهِ :

— لن أراها بعد الان. لقد عدتُ غير قادر على القيام بجرمة الصنيعة، ولا بالنهوض بما اوصتني بهِ أمي...

أدرك السبب الذي من أجلهِ ما ردّوا عليهِ السلام، فقال في نفسهِ :

— أنا لا قيمة لي! أنا صفرٌ الى الشمال!

نظر الى ضعف جسمه، فزاد تحسُّرهُ، وذاب شوقاً الى أن يصير قويّاً فيقوى على صنع العجائب...

وصلا الى الطريق المؤدية الى « البيت الاخضر »، فقال وديع :

— أودّعك، يا سيدي حبيب... على أمل اللقاء!

اندفع في تلك الطريق يائساً؛ لكنهُ لم يسِرْ غير قليل، حتى توقّف وجعل يدهُ على جبهتهِ، وتذكّر أموراً غريبةً خطيرة، فقال :

— نعم... نعم... لا يزال على وجهِ الارض أناس سحرة.

لمّا وصل الى البيت، قال لراحيل :

— غداً أسافر الى المدينة!...

سُرّت راحيل بالخبر ، وقد كانت تتوقّع ذلك السفر ، فقالت :

— اذن قد اقتنعت ووطدّت العزم ! كيف أمكنك أن تبقى الى اليوم في هذه البريّة ، حيث لا سلوى ، لا صديق ، ولا شيء ، سوى اولئك الاغرار الاردياء ، الذين يضحكون منك أو يسيئون اليك !

أعاد وديع الكلام وقال :

— غدًا أسافر الى المدينة . . . أعدّي لي حقيبتي . . . لا تكثري فيها من الثياب ، فان غيابي لا يتعدّى يومين او ثلاثة .

— اذن تريد أن ترجع ؟ !

— نعم ، بعد أن أنتهي من عمل ما عوّلت عليهِ .

— ماذا تريد أن تعمل ؟

— ستعرفين ذلك ، متى رجعت . اسكبي الطعام ؛ أنا ، هذا المساء جائعٌ جدًّا .

خرج الى غرفة الطعام ، وجلس الى المائدة ولبث صامتاً .

لمّا نهض ، قال :

— أنا ماضٍ للنوم . أيقظيني غدًا ، عند الساعة الخامسة ، فاني أُريد ركوب القطار الاول .

— سأُرافقك الى المحطة لاحمل لك الحقيبة ، فانها ثقيلة عليك .

ذكر وديع ضعفهُ ، فقطّب قائلًا :

— نعم ترافقيني الى المحطة وتدعين لي بالتوفُّق !

اضطربت راحيل وقالت :

— أخشى أن تكون عازماً على تعريض نفسك للاخطار !

— لا ، لا ، كوني مطمئنة ! سألتك أن تدعي لي بالتوفّق ، لاني مسافر في طلب شيء صعب وجودهُ . . . سترين ، يا راحيل ، سترين !

— ربما أحتاج الى مكاتبتكَ ، فما عنوانك ؟

— عنواني تعرفينهُ : أنا ماضٍ الى عرَّابي ، توًّا . . .

— أنت الى عرَّابك ذاهب ؟ سيستقبلك أحسن استقبال ، ويعتني بك ، فتكون كأني أنا في خدمتك . آه ! حزرت . . . نعم حزرت . . . عرَّابك ذو معرفة بالسحر ، وعنده من الكتب ، والقناني ، والآلات ، شيء كثير . فانت ماضٍ اليهِ لتطلب منهُ ذلك الشيء الصعب . . .

قطع وديع عليها الكلام قائلًا :

— مساء خير ، يا رحيل ، مساء خير ! لا تنسي أن توقظيني . . .

صعد الى غرفتهِ ، واتكأ على النافذة ، وراح ، في ذاك الظلام ، يفتِّش بنظرهِ عن غرف القصر . واشتدّ به الشوق ، فهتف :

— نعم ، نعم ! يجب أن أكون قويَّ الجسم ، قادرًا على كل شيء ، فيسعني اذ ذاك أن أؤدّي ما عليَّ من الدين للآنسة عفيفة ، وأجعل أباها يندم على ما صنع .

عادت اليهِ ذكرى ضعف جسمهِ ، وتصوَّر نفسهُ راجعاً من المدينة . . . كما كان من ذي قبل ، نحيلًا مهزولاً ؛ فانطرح على سريره ، وهو يقول :

— لماذا ظهرتِ لي فاضلة ، حنوناً ، يا أيتها الآنسة الكريمة ! كان عليك أن تدعيني في تلك الحفرة ، وتتركي دمي يسيل الى آخر قطرة ، فأموت أنا ايضاً والحق بأبي وأمي !

***

لمَّا وصل السيد اسعد الى القصر ، خلا بأبنتهِ وقال لها :

— عندي وصيّة أوصيك بها . لمَّا وصلنا الى مخارف الحديقة ، لقينا شابًّا سلّم علينا ؛ وهذا الشابّ يُدعى وديعاً . . .

— نعم ، نعم !

— هذا الابله ، الذي منذ أشهر نشلتهِ من الحفرة ، صار ، بسبب عطفك عليهِ ، يُجيز لنفسهِ أن يدخل ويطوف في الحديقة وحول القصر ؛ ذلك شيء لا يرضيني أصلاً .

— هو شابّ مسكين ، هيئتهُ تدلُّ على أنهُ لا يعرف الشرّ .

لم تكن عفيفة عارفة بشيء من أخبار تلك الفاجعة التي يتَّمت ذلك الشاب .

أجاب الجلّاد .

— لا يعرف الشرّ ؟ ! حكمي عليهِ مخالفٌ لحكمك . عندي أسبابٌ تحقق انهُ لا يريد لنا خيراً . . . وأنا سأُطلعك على تلك الاسباب . نحن الان في أفراح عرسك القريب ، فلا أشاء ان أُعكّر صفاءها . عديني أنك لن تعطفي على هذا الشابّ ، وأن تطرديهِ كلما وقع نظرك عليهِ !

— أراك ، يا أبي ، تنفر من هذا المسكين كلّ النفور . ولكن بما أن لنفورك هذا أسباباً تجعلك منهُ على حذر . . .

لم تكتمل كلامها ، بل خرجت الى الضيفين .

قال أسعد في نفسهِ :

— نعم ! نعم ! حسبي ما تحمَّلتهُ من وجود الارملة . فعليَّ الان أن أسعى لإبعاد هذا الابن .

هكذا كان أسعَد لا يبرح مصرّاً على عناده ، فلم يكتفِ بأن أقام تلك الدعوى على أمين الحكيم ، بل هو لا يزال الى الان ، عنيداً ، ويشاء أن يتخلّص من النظر الى وجه ابن ضحيته .

٣

هناك في المدينة . . . ، عند آخر شارع . . . ، دارٌ مؤلَّفة من أربع غرف عارية من كل زينة . مدخل الدار منفصلٌ عن الغرف بدهليز ، في مؤخره المطبخ وبيت المائدة . وراء الدار ردهةٌ متَّسعة ، بمساحة الغرف الاربع ، وهي محلٌ للعمل . في هذه الردهة تجد — كما سبقت وقالت راحيل — كتباً وحناجير وقوارير وآلات . . .

كان العلَّامة شفيق ، عرّاب وديع ، يتمشَّى ، ويداه وراء ظهره .

هو رجلٌ في السبعين من عمره ، ذو حزم يمازجهُ شيء من الجفاف ؛ شعره الفضيُّ مسترسل على قذاله ؛ لهُ التفاتة كأنها التفاتة النسر ، وعينان متوقِّدتان تتفحَّصان كلّ ما تريان . اخترع أموراً كثيرة ، حتى اعتقد الناس أن لهُ معاطاةً مع الارواح ، وانهُ ساحر .

قُرع الباب ، فأسرعت الخادمة الى العرّاب وقالت :

— سيدي ، أتى « فليونك » !

فتوقَّف العرّاب وقال :

— فليوني ؟

— نعم ، فليونك وديع ، ابن الارملة التي كانت تبيع أشياء تقوية ، في شارع . . .

— نعم ، نعم ! . . . هو الان هنا ؟

— نعم ، ويطلب أن يراك .

— ليدخل !

اتّجه العرّاب الى الباب للترحيب وقال :

— تركت القرية وجئت الى هنا ؟

أخذه بين ذراعيه وعانقهُ .

— نعم ، يا عرّابي ، وأنا مسرور لرؤيتي إياك في صحّة جيّدة .

— أنا ! صحّتي دائماً جيّدة ؛ ولكن أنت ؟

ونظر العرّاب الى فليونه نظرة طبيب ، وقال :

— وأنت هيئتك تدل أيضاً على صحّة حسنة . . . نعم أنت شاحب ؛ ولكن تلك هي هيئتك العاديّة . إجلس . قصّ عليّ أخبارك . أتيت — ولا ريب — لتسكن المدينة ؟

— لا ، بل جئت لاراك .

— هذا دليل حبّ ولطف . إذن ستبقى عندي بضعة أيام ؟

— هذا متعلّق بإرادتك .

— أنا أُمسكك عندي ، قدر ما تريد ، فاني عارف أنك لا تزعجني في أعمالي . . . ها أنا أُعدّ لك غرفة . . .

— كأني بك لم تدرك قصدي . قلتُ ان بقائي عندك متعلّق بك ، لأني جئت أسألك خدمةً مهمّةً ، أنت وحدك تعلم الزمان الذي تقتضيه .

— خدمة ؟ قل ، ما هي ؟ انت في حاجة الى مال ؟ لا ، فإن أُمّك تركت لك ما يكفيك ؛ أنا واثق أنك لا تنفق المال في سُبلٍ لا منفعة فيها . . . أنت ، ولا شك ، لا تزال عاقلاً ؛ حذارِ !

— كيف يصحّ أن لا أكون عاقلاً ؟

ثمّ تنهّد وقال :

— يا عرّابي ، أنا منكود الحظّ ، سيّء الطالع !

هتف العرّاب :

— ماذا حصل لك؟

— متضجّرٌ أنا من الحياة، متألم...

— اذن عندك سوداء أو ماليخوليا. سأعتني بك وأزيلها عنك. أفضل دواء لك، طعامٌ مُغذٍ ورياضات جسميّة، وتنزّه وتسلّ... بعد ثلاثة أشهر تصير قويّ البنية نشيطاً!

حنى الفليون رأسهُ وقال حزيناً:

— ليس عندي أهليّة لذلك. آه! أودّ الحصول على تلك القوّة حالاً! نعم أشاء أن أصير قوياً، أقوى من جميع الناس، وجديراً بأن أقوم بأمور خارقة العادة. قد فكّرتُ في ما لك من المعارف الواسعة...

قهقه العرّاب وقال:

— معارفي الواسعة... أنت أيضاً تحسبني شريك الشيطان! أتظنّ أني أحقق أملك فتصير حالاً عنترة زمانك قوّة وبطشاً! مجنون انت، يا فليوني العزيز! إليك، عن هذا، وحدّثني عن ذلك الضاري، أسعد قاهر. ألم يحصل له شيء؟ ألم تسقط عليه مدخنة (داخون) تسحق رأسه، لا بدّ!

لم ينسَ العرّاب ما مضى، ولم يغفر لأسعد قاهر.

ثم تنهّد وقال:

— نعم، يا لهُ من ضارٍ! كأني الآن أراهُ، حين قابلتهُ وسألتهُ ان يساعد أمك، ويحنّ عليك؛ ولولا الحياء، لدفعني الى الخارج. إخالهُ ظنّ أني كنت شريكاً لأبيك! يا لهُ من شرّير! سترى عاقبة عناده! سترى!

اجاب وديع:

— أظن ان المدخنة، بعيدةٌ، فلا تسقط عليه.

حملق العرّاب واجاب:

— أتجرؤ انت على هذا القول؟

نعم ، فإن عندهُ في القصر ملاكاً يحرسهُ : ابنتهُ عفيفة الصالحة ، الفاضلة ، التي غمرتني بمعروفها ..

قصّ وديع ما جرى لهِ مع خادم الاصطبل ، وكيف ان عفيفة انقذته واعتنت بهِ ، وقال :

— إني شاكرٌ لها من أعماق قلبي ، وأودّ أن أظهر لها معرفتي للجميل ، وأبرهن عن شكري بأعمال كبيرة ، عظيمة ...

ابتسم العرّاب وقال :

— اذن هذا هو سبب شوقك الى أن أُصيّرك عنترة زمانك !

— قد أظهرتْ لي من العطف ما لن أنساه !

فكّر العرّاب هنيهة ، ثم قال :

— أمرٌ غريب ! ابنة ذلك الجلّاد أحسنتْ اليك ، أنت ابن الضحيّة ... لا شكّ أنّ هنالك عناية إلهيّة تقود كلّ شيء . وتُعدّ الاسباب اللازمة .

أنا يلذُّ لي ان أكون شريكاً لتلك العناية ، ولا سيّما بعد ان حسبني الناس شريكاً للشياطين ! كم عمرُ الآنسة عفيفة ؟ أظنُّها من عمرك ؟ واذكر أن أمّك حدثتني عنها ...

— أظنُّها في الثامنة عشرة سنة .

قال متأسفاً :

— وهي ستتزوّج في الشهر الآتي ؟

— هل عرفتَ خطيبها ؟

— رأيتهُ مارًّا في المركبة ، وأخبرني مدير المحطة انهُ يُدعى شكري الناجح .

إهتزّ العرّاب وقال :

— شكري الناجح ... ؟ شكري الناجح ... أنا أعرف هذا الشابّ ...

حدّثني بعضهم عن شابّ يُدعى شكري الناجح ... نعم، في الاسبوع الماضي، سمعت شيئاً عن شكري هذا، وأنهُ سيتزوّج فتاة غنيّة جدًّا، ذات عشرين الف ليرة...

ثم قهقه فجأةً وقال :

— اذن هي ابنة أسعد قاهر، ذاك الضاري! تلك هي المدخنة التي كنت أتوقّع أن تسقط عليهِ.

قال وديع :

— أيّة مدخنة ؟

— المدخنة التي يجب أن تسقط على رأس أسعد!...

استغرق في الضحك، وقال :

— قد أصابت أُمك حين كانت تقول إن في السماء عدلاً !

أجاب وديع :

— لا أفهم أيّة مدخنةٍ تعني ؟

— ستفهم ذلك فيما بعد... الآن لا يسعني أن أُطلعك على كل شيء، فاني أخشى أن تتصدّى وتمنع تلك المدخنة عن السقوط. هي مدخنة يجب أن تسقط على ذلك الرأس! لا تشكُ ذلك، يا عزيزي وديع : إن هذه المدخنة تدفعني حالاً الى أن أجعل منك ذلك الرجل القويّ الذي تريده أنت.

هتف وديع :

— شكرًا لك، يا عرّابي الحبيب!

— نعم، يجب ان تصير قويًّا، قويًّا، ليمكنك ان تمثّل في هذه الرواية دورًا مهمًّا. لا تتعجّل الثناء عليّ؛ لستُ على ثقة أكيدة بالنجاح : إنّ طلبك يُعدُّ من المعجزات...

ثم أوجز في الكلام وقال :

— تبدأ الآن بتناول الطعام . وبعد ذلك تخرج الى التنزُّه في المدينة ترويحاً للنفس . . . وانا أُفكر ، وأُعدُّ المعجزة . . .

جلس وديع الى المائدة وأكل بشهوة جيدة ، وبدأ يشعر انه صار قوياً ، فقد كان لهُ في معارف عرَّابهِ ثقة لا حدّ لها .

قضى بقيّة النهار يجول في شوارع المدينة ويعيد التفرُّج على كلّ ما كان يلذُّ لهُ أيَّام حداثته .

بعد العشاء أحبَّ ان يبكر في النوم ليحلم أحلاماً هنيئة .

بينا هو نائم ، رأى حلماً عذباً سرَّهُ طول الليل : رأى نفسهُ في مخارف حديقة القصر ، وشاهد عفيفة آتية اليه . للحال رأى رجلين ، وقد انقضَّا عليها وحملاها . حينئذٍ أحسَّ هو بقوَّة غير بشرية ، فهجم على الرجلين وصرعها ، وأنقذ الفتاة ، وبذلك أدَّى اليها ما عليهِ من الدين . . .

وفيما هي صاعدة الى القصر ، تصدَّى لها خطيبها ، وهو رافع بيديهِ مدخنةً طويلة ، كاد يُلقيها عليها فيسحقها . رأى وديع أنهُ أسرع ، كالبرق ، وانتزع تلك المدخنة ، فكادت تسقط على راس الخطيب نفسه ، وان عفيفة شكرتهُ وامتدحتهُ ، وأنَّ اسعد القاهر وصل حينئذٍ وشكر له ايضاً وقال :

« سِرْ بي الى ضريح ابيك لأسألهُ المغفرة ! »

استيقظ وديع من نومه منهوك القوى ، وهو يسبحُ في العرق ، كأنه صرع اولئك الرجال حقاً . ذكر جميع ما رأى في نومه ، وأدرك ان ذلك لم يكن الَّا حلماً ، فتنهَّد وعاد فنام .

لما كانت الغداة ، أسرع الى عرَّابهِ ، فوجدهُ عاكفاً على العمل . فهو ينام باكرًا وينهض قبل الصباح .

نظر العرَّاب الى فليونه ، فقال :

— كأنك قضيت ليلك حالماً ؛ وهيئتك تدلُّ على أنك نمتَ نوماً مزعجاً . . .

قصَّ الفليون حلمه ، والعراك الذي عاركه .

كان العرّاب يسمع باسماً ، وقال :

أرى ان تلك المدخنة الطويلة قد بلبلتْ دماغك ؛ لكنّ في حلمك شيئاً من الحقيقة : ان الرجلين اللذين صرعتها ، لا أعرف من امرهما شيئاً ؛ اماَّ الخطيب ، فأرى انك ستضطرّ إلى منازلته . لذلك انت في حاجة الى تلك القوّة العظيمة التي شعرت بها في الحلم ؛ ولم يبقَ إلّا ان أُنيلك اياها !

اجاب وديع :

— هل تستطيع ان تمنحني تلك القوّة ؟ !

— أنا الان أسمى ! وأعمل ! وقد صار يسعك أن تعتمد عليَّ . بما أني شريكٌ للعناية ، فلا يمكن إلّا أن أنجح !

هتف وديع :

— آه ! يا عرّابي ! آه !

قال العرّاب :

— إنتظر ! ها أنا أجعلك تشتغل معي . عليك أن تتأهّب لتلك البطولة ! هاك رسالةً كتبتُها في شأنك ؛ ستحملها أنت نفسك الى صاحبها ، ولا يُطلب منك إلّا أن تتبع الدروس التي يُلقيها عليك . إقرإِ العنوان .

كانت الرسالة الى معلّم في الرياضة البدنيّة .

قال العرّاب :

— فهمت ؟ ستتعلّم عندهُ مبادئَ لا يمكنني أن أُعلّمك إياها أنا . إذا انتهيتَ ، علّمتك أنا حينئذٍ ما تبقّى ، فتصبح ، لا يقدر أحدٌ على أن يصرعك . إذهب الان وخذ الدرس الاوّل .

عانق وديع عرّابهُ وتوجّه الى المعلّم المذكور .

استمرّ يتردّد عليهِ مدّة عشرة أيام . كانت جميع أوقاتهِ مشغولة بهذه التمرينات الجسميّة التي كانت تنقصهُ ، ولا يعرف منها شيئاً .

كان العرّاب يرى في عيني فليونه وفي جسمهِ مفاعيل تلك التمرّنات . نعم إنّ وديعاً لم يصر ، عنترة عصرهِ ؛ لكنّ هيئتهُ كانت تكتسب بأساً ، ومشيتهُ تمتلئ جلادةً وحزماً .

همهم العالم الشيخ وقال :

— على تقدم ، ونجاح !

في ذات مساء قال :

— غداً ترجع الى « البيت الاخضر » ، في القرية . فقد آن أوان وقوع المدخنة . قد اطّلعتُ على جميع ما يجري هناك : فأنا واثق بأن ذلك الضاري ، أسعد ، أوشك أن « يدفع » ، كما تنبّأتُ لهُ ! فقد بدأ عمّلتهُ يثورون عليهِ ! وهذا أوّل المخاض . . .

لم يتعجّب وديع من كلام عمّه ، لانهُ كان عارفاً أن قساوة اسعد قاهر قد أوجدت لهُ في معملهِ أعداء كثيرين .

قال العرّاب :

— تلك المدخنة الكبيرة أريد أن تمسّ رأس ذلك الضاري ، ولو قليلاً ، فيتعلّم الدرس الذي هو في حاجة اليه .

اجاب وديع :

— والآنسة عفيفة ؟ إنها لم تصنع معي ومع الآخرين إلّا كلّ خير ، فهي صالحة ، ومحبّة للجميع .

قال العرّاب :

— الآنسة عفيفة . . . أسمحُ لك بأن تعاملها بحسب شعائر قلبك . دافع

عنها ، إذا احتاجت الى ذلك . وها أنا أمنحك تلك القوّة التي وعدتك بها ؛ ولكن لي عليك شرط .

اجاب وديع :

— أنا مستعدّ لقبول كلّ الشروط .

قال العرّاب :

— ليس لي إلّا شرط واحد ؛ إسمع . وفتح العرّاب فمهُ ، وقال بكلّ رزانة :

— هنا في المدينة . . . وفي كلّ مكان أيضاً ، عددٌ كبير من التاعسين الضالين ، الذين يحلمون الاحلام التي تحلمها أنت : يريدون أن يكونوا ذوي بطش كي يتشفّوا هم ايضاً من غيظهم ويُرووا الغليل من الانتقام . فانظر ، من الآن ، ما يحدث ، إذا كشفت لأحد الناس سرّ القوّة التي أنا مُزمع أن أجعلها فيك !

هتف وديع :

— أُقسم لك اني لا أبوح بهذا السرّ لاحد !

— أقسمتَ ! وأنا واثق أنك تحفر بقسمك . فلم يبقَ الآن إلّا أن أجعلك قوياً . هذا أمرٌ لا يقتضي وقتاً طويلاً .

بعد ربع ساعة ، دخلت الخادمة تدعوهما للطعام ، فرأت أمراً مدهشاً ، فلبثت واقفة مفتوحة الفم : رأت فليون معلّمها ، النحيل المهزول ، واقفاً في وسط تلك الردهة الواسعة ، وهو يتلقّى ، بكل بأس ، صدمات الشاب الذي يشتغل عند سيّدها ؛ شابٌ في الثلاثين من عمرهِ ، ذو جسم هائل وقوّة كقوّة ثور . كلّما حاول هذا الشاب أن يصدم الفليون ، اكتفى هذا بأن يبسط يمينهُ ، وفيها عصا قصيرة ضخمة ، فيمسّ ذلك « الثور » بصدرهِ او بكتفيهِ فيسقط هذا على ركبتيهِ ، أو ينطرح بطولهِ على الأرض .

في ختام الأمر، خضع المغلوب وقال لسيّده :

— لم يبق لي وسيلة ! فأذن، يا سيدي، ان ندع الملائكة والصراع.

فابتسم العالم الشيخ، وقال :

— هل اقتنعت، يا فليوني العزيز !

أسرع وديع وعانق عرّابه، وهو يبكي بكاء الفرح .

٤

كانت الانسة عفيفة جالسة الى البيانو، تدقّ وتغنّي أغنيّة قديمة، تروق السيدة سلمى ؛ فكانت هذه تترنّح سروراً .

كان الخطيب جالساً على كرسيّ، ينظر في البساط العجميّ المبسوط تحت قدميه، يفكّر، غير عابئٍ بتلك الموسيقى. لمّا انتهت عفيفة من الدقّ والانشاد، تحلحل الخطيب ونهض وصفّق بيديه وهتف :

— لله درّكِ ! ما أجمل هذا الدقّ وأعذب هذا الصوت !

اتّجهت السيدة سلمى الى الشرفة وقالت :

— قد تأثرتُ جدًا، وأراني في حاجةٍ الى استنشاق الهواء الطلق. همّت عفيفة أن تتبع تلك التي ستكون حماتها، فاستوقفها شكري قائلًا :

— هل تأذنين لي في بضع دقائق ؟ . . . يبين لي أن أباكِ قد تغيّر، منذ يومين، كل التغيّر، وأنت أيضاً . . .

قالت :

— أبي مشغول البال، وهمومهُ تؤثّر فيّ .

اجاب الخطيب :

— أودّ ان أعتقد أني لستُ من مسبّبي هذه الهموم ، وأن لا شيء يتهدّد سعادتنا

قطعت عفيفة عليهِ الكلام ، قالت :

— إنّ قلقهُ مسبّب عن العَملة ، فانّهم يوشكون أن يُضربوا عن العمل .

— مِن هذا الاضراب يضطرب بال ابيك ! آه ! لو كنتُ مكانهُ !

— ما كنت تصنع ؟

كنتُ أذلهم وأقمع طغيانهم ! أمثال هؤلاء النـاس لا يُؤخذون إلّا بالعنف والشدّة !

اضطربت عينا عفيفة اللطيفتان ، وحدّقت الى وجهِ خطيبها وقالت :

— أخشى ان تكون قاسي القلب ؟

لحظ شكري أن كلامهُ لم يصب خطوةً في عين عفيفة ، فقال متلجلجاً :

— لا . . . لا . . . لكنّي لا أشاء أن أراكما في قلق .

قالت عفيفة :

— انّ العَملة بشرٌ مثلك ، وهم يستحقون أن يُعاملوا بلطف ، على قدر ما في مهنتهم من المشاق . انت لا تعرف عملة معملنا ؛ هم ، على وجه العموم ، مطيعون ، محبّون للعمل : فـلا يستحقون أن يُعامَلوا بالقسوة . لا سبيل الى إرجاع السلام إلّا بأصلاح ما أُخطيء بهِ إليهم ، وأن يُمنحوا مطاليبهم العادلة . لكنّ ابي ليس من الذين يتنازلون عن شيء ؛ وأنا اتأسّف على ذلك . . .

قالت ، وتوجّهت الى الشرفة .

لبث شكري ينظر اليها ، وقال في نفسهِ :

« لم تقولي لي كلمة عن زواجنا ! »

حينئذٍ دخل الخادم وقال للآنسة عفيفة :

— سيّدي يسألك أن تقابليه في مكتبه .

حنت عفيفة رأسها لشكري وقالت :

— تأذن لي ؟

ومضت الى أبيها .

خرج شكري الى الشرفة . كانت أُمُّهُ جالسة تنتظرهُ ، فقالت لهُ ، والقلق على وجهها .

— هل من شيء جديد ؟

قال :

— أشعر أن الامور على غير ما نشتهي .

نهضت سلمى واخذت بذراع ولدها وقالت :

— تعال .

نزلت معه الى الحديقة ، أمام بركة ، فيها السمك الأحمر يعبث ويلهو ؛ تلك البركة التي كان وديع يأتي اليها في غيبة اصحاب القصر ، ويتفرّج .

جلست سلمى وولدها ، وقالت لهُ ، أمام ذلك السمك الاخرس .

— هل انت متحقّق أنها غير مرتابة من شيء ؟

اجاب الابن :

— لا أعلم .

— هل بدر منك ما يُلقي فيها شكاً ؟

— لا ، أصلاً ؛ لكنّي أخشى ان يكون قد جاء من المدينة . . . ما يكشف الحيلة .

— ليس في المدينة من يهتمّ لنا ، سوى الذي سعى لعقد الزواج ، وعرّفني بالسيد أسعد .

— ليس من مصلحة هذا الشخص أن يعرقل مساعينا . . .

— نعم ، ولكن ما هذا الفتور الذي أراهُ ، منذ يومين ، في وجهِ السيد اسعد وفتاتهِ ؟

— غيمةٌ وتضمحلّ .

— عسى أن تضمحلّ ! لكنّ قلبي يحدّثني بأننا سنُخفق ولا ننجح .

اجابت سلمى بسرعة :

— حسبك أنك توصّلت الى ما أردت . . . قد سكنتَ القصر ، وعرفت مخارفهُ ، ودرست الامر الذي تسعى اليهِ . . . فتأهّب الان للعمل . قلت لي ان البائنة (الدوطة) حاضرة .

— نعم ، هي في الخزانة الحديديّة ، بمكتب أسعد . قد فتح هذه الخزانة أمامي وأراني العشرين الف ليرة !

— هل أنعمت في درس حالة الخزانة ؟

— نعم .

— أتؤمّل النجاح ؟

— بكلّ سهولة .

— إذن الى الليلة الآتية . . .

— الرأيُ أن تنتظر أيضاً .

— ننتظر ؟ تريد أن ننتظر حتى يُكشف الامر ويطلبوا منّا أن نرحل عنهم ؟ لا ! هذا المساء ، بعد العشاء ، أهتمُّ أنا وأُدبّر ما يلزم ، كي لا يزعجك أحد في ما أُريد أن تعمل ؛ أمّا أنت فكن مستعدًّا للفرار .

أخذت تلك الأمّ الغريبة بيد هذا الابن المتنكّر ، وصعدا معاً الى الشرفة .

٥

دعا السيد أسعد فتاتهُ للجلوس ، ونهض فأغلق باب المكتب ، وكانت عفيفة قد تركتهُ مفتوحاً ، وجلس وقال :

— عندي أمور مهمة أودّ أن أطلعك عليها .

— من جهة المعمل ؟

— لا . قد قلتِ لي ، في هذا الشأن ، جميع ما تريدين ان تقولي . وقد جزمت ، إرضاء لك ، بأن امنح العملة ما يطلبون . . . غداً أقابل زعماء هذه الحركة وأعنى بأن أرتب الأمور بحسب مبتغاك .

— لك الشكر ، يا ابتِ الحبيب

— امّا الآن ، فأشاء أن أحدّثك عن أمر آخر ، هو امر زواجك . قبل كلّ شيء ، أريد أن أتحقّق المسألة التي سألتك عنها قبل أمس ؛ فاني أخشى أن تكوني قد جاريتني فيها إرضاء لخاطري .

— لا ، يا أبي . قلت لك ، وأعيد أن نقض عهد الزواج لا يسبّب لي كدرًا ، ولا يُلقي في قلبي أسفاً . نعم ، أعترف لك أن ليس عندي نفور من السيد شكري . لم أكره ، إجابة لرغبتك ، أن أكون عروساً لهُ ، ولكن في هذه الخمسة عشر يوماً التي قضيناها هنا في هذه الوحدة وهذا السكون ، قد اتّسع لي الوقت لأدرس أخلاق خطيبي واطّلع على شعائر نفسي ، فوجدتُ أن ليس لهُ في قلبي من الحبّ ما يجب أن يكون لمن سنعيش معهُ كلّ الحياة . . . إذن ثق ، يا أبي ، أن سروري بنقض العهد يكون أوفر من كدري . مُر الان بما تشاء .

فتح السيد أسعد قِمطراً أمامهُ ، وأخرج منهُ رسالة وقال لعفيفة :

— إقرئي هذه .

فقرأتْ :

« صديقي العزيز ،

قد دققت في البحث عن أسرة « الناجح » ، فوجدتها أسرة عريقة في الشرف ، وليس في ماضيها إلّا كلّ حميد مجيد . كان الاب ذا منصب عالٍ في الحكومة ، ونال عدّة أوسمة ؛ وأمرأتهُ ، السيدة سلمى ، مثال النساء والأمهات ؛ ولها ابنان : شكري ويوسف . يوسف مات في السنة الماضية . منذ ذاك التاريخ ، اعتزلت الأمُّ العالم ولزمتْ بيتها حداداً وحزناً . . . وقد أتاني أنّها أُصيبت بالفالج . . .

قطع اسعد القراءة وقال :

— ما تقولين في هذا ، يا عفيفة ؟

فاستولى الدهش على الفتاة ، ونظرت الى أبيها ، ولم تُحر جواباً .

قال الاب :

— ما رأيك في السيدة سلمى الناجح ، الملازمة بيتها ، والمصابة بالفالج ، والتي نراها هنا في تمام العافية والنشاط ؟ إذا كان صديقي النائب مصيباً في ما يقول ، فنكون قد . . .

قالت عفيفة :

— هو — ولا ريب — مخطىء . ان كلامهُ هذا عن أُسرة أُخرى .

— لا ، ليس في بلادنا أُسرة أُخرى بهذا الاسم . أنا على ثقة بذلك ، وقد أنعمت في البحث ؛ فلا تظنيني مخدوعاً بما أقول .

واصلي القراءة

قرأت :

— رغبة في خدمتكَ ، قد بالغتُ في البحث ، وطلبت من صديق لي ، يعرفها ، أن يُطلعني على جميع ما يلزم . غدًا أحصل على معلوماته وأُخبرك بها باللسان ، لأنك آتٍ غدًا الى المدينة . . . كما أنبأتني برسالتك . »

توقّفت ماري عن القراءة .

قال الاب :

— غدًا يطّلع على المعلومات اللازمة : فأنا بعد الطعام أُسافر الى المدينة . عند المساء أعود لمقابلة زعماء العَملة في المعمل .

— نعم ، يا أبي . عجّل في انهاء هاتين المسألتين : مسألة الزواج ومسألة المعمل . أما من جهة الاولى ، فانت عارف بما في قلبي ؛ واما الثانية ، فلا تجهل ما أرغب اليك في شأنها .

— وعدتكِ .

نظر الاب الى ساعتهِ فقال :

— الساعة الحادية عشرة والنصف . أُريد أن أتناول الطعام ، وآمر بأن يُعدّوا المركبة لتوصلني الى المحطة ؛ أمّا انت فامضي الى خطيبك وأُمّهِ ، وأبقي هذا السرّ مكتوماً .

ابتسمت عفيفة وقالت :

— كن مطمئناً .

خرجت الى الشرفة .

كانت الام جالسة بعيدة عن ابنها ، وهما صامتان ، كأنهما يتأمّلان في ما أمامها من المناظر .

قالت عفيفة :

— أراكما في خشوع عظيم .

نهضت السيدة سلمى ، وهي كأنها مخطوفة ، وقال شكري مداعباً :

— نحن في إنتظار اشراق نور لطفك .

اجابت عفيفة :

— أنت ايضاً شاعر !

وأطلعتها على سبب تغيبها، قالت :

— ان احوال المعمل تضطرّ أبي ان يسافر الى المدينة ليستشير بعض أصحابهِ في الأمر .

خفق قلب السيدة سلمى فرحاً ، وقالت :

— متى يسافر ؟

— الآن ، بعد الطعام ، ويعود في المساء .

— في المساء . . . أودُّ أنا ايضاً . . . ونظرت خفية الى ابنها . . .

قال شكري :

— ماذا تودّين ؟

— أودّ أن أطلب الى السيد أسعد أن يأذن لي في صحبتهِ الى المدينة .

لو عرفتِ ، يا عفيفة ، ما عليَّ من الاشغال ، لعذرتني عن التغيُّب عنك قليلاً : فقد كلفني أصحابي أن أبتاع لهم أشياء كثيرة . . .

تذكّرت عفيفة ان تلك السيدة غير مُصابة بالفالج ، وأنها على تمام العافية ، قالت :

— أخشى أن لا يستطيع أبي مرافقتك في شراء ما تريدين . . .

— أنا أشتري وحدي ، ولا أزعجهُ أصلاً .

— لكن هل تعرفين شوارع المدينة ؟

— الحوذي يعرفها . أبوك يرشدني الى حوذي أمين .

لحظت عفيفة أن خطيبها لا يتكلّم ، استغربت ذلك ، لكنها كتمت استغرابها وقالت :

— ها أنا أُعلم أبي. تعال معنا، يا سيدي شكري.

قصدوا ثلاثتهم غرفة الطعام.

كان السيد أسعد قد جلس الى المائدة.

قالت عفيفة:

— ان السيدة سلمى تتناول معك طعام الظهر، لانها تشاء أن ترافقك الى المدينة، حيث لها عدّة أشغال.

— على الرحب والسعة.

قال في نفسه: «ما معنى هذا السفر؟»

التفت الى شكري قائلًا:

— ألا تسافر معنا؟ أنا مضطرّ الى الجولان كثيرًا، ولا أودّ أن أدع والدتك وحدها في تلك المدينة الواسعة...

أشارت السيدة سلمى الى ولدها، أن قُل نعم.

أجاب شكري:

— نعم، اصبتَ، يا سيدي. واجباتي تدعوني أن أصحب أمي في هذا الجولان.

التفت الى عفيفة وقال:

— آمل أن لا يسوءك تغيّبي.

— أجابت:

— لا، أصلًا. ها نحن نأكل معًا

خرجت فأوصت الخدَم بإعداد الطعام.

لمّا نهضوا، خلت سلمى بابنتها ليأخذا الأهبة للسفر، قالت لهُ:

— نرافق السيد أسعد، وتعود أنت هذا المساء من دونه.

أجاب شكري:

— إذن تريدي أن نبدأ العمل ؟ . . .

— نعم ! . . .

لمـّا خلا أسعد بابنتهِ ، قال لها :

— قـد رضيت أن يرافقاني . هذه فرصةٌ ملائمة جدًّا : اذا اطّلعتُ على تلك المعلومات ، ورأيت الزواج غير موافق ، عُدتُ وحدي في المساء ، ويكون الامر قد انقضى دون ضجّة ، فيسد في وجوههما بابُ الرجوع الى هنا .

رافقتهم عفيفة الى المحطّة ، ثم عادت وحدها في المركبة ، أمرت الحوذي أن يسير بها الى المعمل . إن مسألـة العمّلة كانت تُقلق بالها . هي تحبُّ المعمل وتعطف على أولئك العمّلة ، وهم يحترمونها ، وهي لهم بمثابة شفيعة ومحامية .

فيما هي تجوز القرية ، لقيها شابٌ وسلّم عليها بكل احترام .

ردّت عليهِ السلام ، وقالت في نفسها :

— أين رأيت هـذا الشاب فيما مضى ؟ ليس هو من عمّال المعمل ، ولا هو ممّن لهم علاقة بالقصر . . .

سألت الحوذي ، قال لها :

— اذن لم تذكري ذلك الشابّ الـذي أنقذتهِ ، فـيما مضى وأمرتني ، فحملتهُ في المركبة الى « البيت الاخضر » ؟

كان وديـع لابساً اذ ذاك ملابس فـاخرة ، وبيده عصاً ، وقد تغيّرت هيئتهُ وعاد من أجمل شبّان عصره .

لم تجب عفيفة بشيء . راحت تتذكّر ذاك الذي ضربهُ خادم الاسطبل ، في السنة الماضية ، وتلك الحفرة التي انتشلتهُ منها ، وهو مخضّب بالدم .

لمـّا جازت المركبة القرية ، أخذت الطريق المؤدّية الى المعمل . لم تسِر غير دقيقتين ، حتى توقّفت فجأةً .

عـاملان من عملة المعمل ، كانا قد بدأ بالإضراب فقضيا ذلك النهار في

الحانة يعاقران الخمرة ، ثم جاءا وعسكرا في منتصف الطريق ، واعترضا المركبة ومنعاها عن مواصلة السير .

عرف العاملان عفيفة ، فاكفهرّت وجوههما وأخذا يشيران إشاراتٍ منكرة .

لم تخف عفيفة لانها كانت واثقة أن هذين الرجلين لا يرومان الاعتداء عليها . قالت للحوذي :

— لا تُلحَّ في السير .

نادت العاملين وقالت لهما :

تريدان أن تكلماني ؟ ها أنا مُصغية اليكما . ماذا يسعني أن أصنع من أجلكما ؟ قولا ، فأصنعهُ .

لم يجيبا ، كأنَّ ما شاهداه من لطف سيدتهما لجم أفواههما ، فلم يجدا ما كانا يريدان أن يقولا لها .

ثم نظر الواحد منهما الى الاخر وأخذا يضحكان ضحكاً غريباً . خطر لدماغهما المستعر بخمار الخمرة خاطرٌ ، وهو أن يختطفا ابنة سيدهما ويحتفظا بها رهينةً ، الى أن تُجاب المطاليب .

مدَّ أحدهما يده نحو عفيفة وتجاسر أن قال :

— هل تأذنين في أن أصافحك ؟

لم يُرد الاخر أن يبقى بعيدًا ، فحاول أن يصعد الى المركبة .

كان الحوذي يسمع ويرى ، فانتصب واقفاً ورفع السوط وصاح :

— وراءكما ! وإلّا !

هجم عليهِ العاملان ، فضرب الحوذيُّ بالسوط فشرم أُذن أحدهما وأوجع ظهر الاخر . تسلّقا الى المركبة وجذبهُ أحدهما الى الارض ، ووثب الاخر الى عفيفة وهو يدمدم .

رأت عفيفة أنها في خطر ، فصاحت تستغيث .

غمغم أحدهما مستهزئاً وقال :

— نادي وصيحي !

لم يكد يصر في داخل المركبة ، حتى فاجأه شاب وصاح به :

— نزال من المركبة حالاً !

نظر اليه السكران وقهقه وقال :

— هذا انت ، يا وديع !

وتحوّل عن عفيفة وهجم عليه .

تأخر وديع قليلاً الى الوراء ، ونظر اليه بعينين ينبث منهما الشرر . كانت تلك اول مرة دُعي فيها لاستعمال القوة التي أولاه إياها عرابه . انقض السكران عليه ، فلم يبق لوديع إلا الدفاع او الفرار .

بسط ، كما فعل في بيت عرابه ، يده اليمنى ، وفيها تلك العصا ، ومس بها الخصم ، فسقط على ركبتيه ، وراح يتدحرج ويتمرغ في غبار الطريق . وثب وديع بقوته فقدحت عيناه نارا وأسرع الى العامل الآخر ليردّه عن الحوذي ، ومس رأسه بطرف العصا ، فصرعه .

نهض الحوذي واخذ يحدق الى الشاب الذي صرع ذينك الوحشين معاً ، فهتف :

— هذا أنت ! هذا انت ، يا وديع ! . . .

ابتسم وديع ابتسامة ممزوجة بشيء من الفخر وقال :

— نعم ، أنا هو . . .

لكنه عاد الى استحيائه ، اذ سمع عفيفة تقول :

— هذا أنت ! . . . آه ! لك الشكر !

بسطت يديها اليه .

قال وديع :

— بحياتك ! يا سيدتي ، لا تشكريني !

نهض السكرانان يهمهمان .

نادت عفيفة وديعاً ليصعد الى المركبة ، الى جانبها ، وقالت :

— حالًا ! عجّل ! لا أُريد أن تعرّض نفسك مرّة ثانية . . .

قالت للحوذي :

— الى القصر توًّا !

فجرت المركبة .

لم يخالف وديع أمر عفيفة ، وكان يُصغي اليها مرتبكاً خجلًا وحياء ، وهي تفيض في شكرهِ والإعجاب ببسالته ، وقالت :

— إنَّ ما أتيتهُ الآن لهو بطولة حقًّا !

ومِمَّا زاد دهشي أنّ ظاهرك لا يدلّ على تلك القوَّة التي بدتْ منك .

اجاب وديع :

— عفوًا ، سيدتي . لستُ أهلًا للمديح الذي تجودين بهِ عليَّ . انّ ما لكِ عليَّ من الفضل أولاني قوَّة نلتُ بها الظفر . . .

وذكّر عفيفة بما أحسنتْ بهِ اليهِ ، في العام الماضي . لكنّ عفيفة أسكتتهُ وقالت :

— لا فضلَ لي عليك ؛ بل انت ، انت صاحب الفضل ! اني لذاكرة جميلك ما حييت !

تذكّر وديع الواجب التي عهدتْ بهِ اليهِ أُمّهِ ، ورأى أنهُ بدأ يقوم بهِ ، فأخذ قلبهُ يخفق فرحاً .

قالت عفيفة :

— نعم ، لن أنسى جميلك عليَّ ؛ لكنّي أشأ . اولا أن تتعرّف إليَّ . أنا لا أعرف منك إلا اسمك الخاصّ ، وأجهل اسم أسرتك .

اجاب وديع :

— اسمي وديع الحكيم .

وتوقّف هنيهة ، ينتظر شيئاً لا يجي . . ان اسم « الحكيم » لم يذكّر عفيفة بشي . ، فإنها تجهل خبر تلك المأساة التي يتّمت وديعاً .

واصل وديع الكلام ، قال :

— وُلدت في المدينة . . . فقدتُ والدي ، فأتيت مع والدتي وسكنّا هنا . . . هي ايضاً ماتت . . .

هتفت وديعة :عفيفه

— إذن أنت يتيم ! انت في هذا العالم وحدك !

— لا ، لست وحدي . . . عندي خادمة أمي ، وهي تعتني بي . ولي في المدينة عرّاب فاضل ، يدعى شفيق المعلّم . . .

فزاد انتباه عفيفة عند سماعها اسم هذا العالم المشهور ، فقالت :

— السيد شفيق المعلّم ؟

— نعم ، ياسيدتي .

— أهنّئك بهذا العرّاب الذي يحقّ لك أن تفتخر به .

مرّت المركبة أمام المعمل ، فدنا عاملٌ وحيّا ابنة سيّده . وقّفت عفيفة المركبة وقالت لهذا العامل :

— أرجو منك أن تقول للمدير ليأتِ الى القصر .

واصلت المركبة السير .

قالت عفيفة لوديع :

— كان في نيّتي ان أدخل المعمل ، حيث الأفكار ، كما لا يخفى عليك ،

ثائرة على ابي ؛ وكنت أشاء أن أهدئها . . . لكني عدلت عن ذلك ؛ فإن ما حدث لي الآن ، جعلني أتأنى وأفكر . . .

اجاب وديع :

— أحسبُ أن ليس جميع العَملة مُشبهين لذينك اللذين اتقحا عليك ؟

— لا ، ليس في العَملة من يجسر على ما جسر عليهِ هذان ؛ لكنَّ سبباً آخر جعلني ألّا أعرّج على المعمل .

لم تكشف عفيفة ذاك السبب .

قالت :

— أودّ أن ألقي عليك سؤالاً ، وأخشى أن يثقل عليك .

— سلي ، يا مولاتي ، ولا تخشي .

— هل تغفر لي مسبقاً ؟

— من كلّ قلبي !

— أنا أفكر في ما يسعني أن أصنع من أجلك إظهاراً لشكري لك ؛ ولم أجد . أنت — ولا ريب — في سعة ؟ ولستَ في حاجة الى وظيفة ؟

حنى وديع رأسهُ وقال :

— لا ، يا سيدتي . إن أمّي تركت لي ثروة صغيرة ، تكفيني .

— اذن لا يسعني ان اخدمك في شيء . . . .

تشجّع وديع وقال :

نعم ، يمكنك أن تصنعي شيئاً .

— قلْ ! عجّلْ ! ما هو هذا الشيء ؟

تردّد وديع في الجواب ، وخشي أن تنتصر عفيفة لأبيها وتحكم حكمهُ فتحتقر ابن السارق !

فألحت عفيفة وقالت :

— قلْ ! تكلّم !

اجاب وديع :

— أعترف لكِ أنّ ذلك الشيء صعب . . . فهو يتعلّق بالسيد أبيك .

قالت عفيفة :

— أعدك أني أناله لكَ منهُ !

— أشكركِ ؛ لكنّي أعود فأقول لك انّ ذلك الشيء صعب هو .

حينئذٍ ذكرت عفيفة ما أوصاها بهِ أبوها من جهة ذلك الشاب ، فقالت :

— مهلًا ! أظنّني أدركتُ ما تودُّ أن تقول . . . قد عرفتُ من أبي أنّهُ لا يميل اليك . . . لكنّي لم أعرف السبب ، وأبي لم يطلعني عليهِ . هل تريد أن تخبرني عنهُ ؟ أنا أعدك بأني أُطلع أبي على خطإه ، فيسهل علينا اذ ذاك إدراك ما تطلب ؛ ولا سيّما متى عرف أنك أنت منقذ فتاته !

اجاب وديع :

— ها أنا ، يا سيدتي ، أُطلعك على ما أتمنّى الحصول عليهِ . . .

حاول وديع الكلام ، فلم يطاوعهُ قلبهُ ، خشية أن يُحزن قلب ابنة « الجلّاد » . تمكّن الخوف من قلبهِ ، وظنّ أن لا بدّ لعفيفة من أن تنتصر لأبيها ، وذلك ما يطالبها بهِ الاحترام البنوي .

ثم تخلّص وديع من ذلك المأزق ، قال :

— بما أنك تشائين ان تتعرّفي طلبي ، فأخبري أباك بالخدمة التي حصل لي الشرف بأن أقوم بها ؛ وسليهِ أن يُطلعك هو نفسهُ على سبب نفوره منّي . . . هو ولا ريب — يخبرك بذلك ؛ أمّا أنا ، فلا أستطيع ، لاني أُسبّب لك بذلك حزناً ، وما كنتُ لارضى بأن أكون لك سبب حزن .

وصلت المركبة الى القصر ، فوثب وديع الى الارض وتباعد مُسرعاً . لبثت عفيفة تنظر اليهِ ، وهي مضطربة البال مما قال .

دخلت القصر، وراحت تفكّر في تلك العبارة وتسأل نفسها قائلةً:

— ما هو ذلك السرّ الذي لم يُرِدْ وديع ان يكشفهُ لي مخافة أن ينغّص عيشي؟

نزلتْ الى الخدم وسألتهم واحدًا بعد واحد، فلم يُفدها أحد شيئاً، ولم يكونوا يعرفون إلّا أمرًا واحدًا، وهو أن سيّدهم كان يكره أمّ ذلك الشابّ وينفر من ابنها . . .

صبرتْ الى أن يعود أبوها، فتطّلع منهُ على جليّة الأمر.

٦

كانت السيّدة سلمى الناجح، طول الطريق المؤدّية الى المدينة، تتظاهر بالسرور، بُغية أن تُبهج رفيقها في السفر وتُزيل ما تراهُ في وجوههما من القلق.

أمّا السيد أسعد — وهو المعتاد أن يعبّر عن فكرهِ بحرّية، بل بجفاء — فكان يسعهُ، عند الضرورة، ان يلجأ الى الصمت؛ ولكن كان في يدهِ ايضاً ان يتظاهر بالابتهاج، اذا شعر بدافع يدفعهُ الى الغضب.

أمّا شكري، فكان يرى نفسهُ ملتزماً بأن يُظهر الكآبة أمام مَن سيكون عمّهُ، إكراماً لتلك التي فصاوهُ عنها، وهي عمّا قليل ستكون عروساً لهُ.

وصلوا الى المحطّة، وهناك افترقوا، على أن يعودوا في قطار الساعة الثامنة مساء. وعرض السيّد اسعد رأياً، أن يلاقياهُ عند الساعة السابعة في مطعم المحطة، حيث يتعشّون معاً، ثم يركبون القطار.

استقبلت السيدة سلمى هذا الطلب ببرودة، قالبةً شفتيها؛ فاستدرك شكري الامر فقال:

أُمي معتادة حياةً هادئة، لذلك ترغب عن العشاء في المطعم أمام جميع المسافرين... وعرض أن يكون مكان الاجتماع عنده، في المسكن الذي استأجره في شارع... على مسافة عشر دقائق من المحطة، وقال للسيد أسعد:

— عند الساعة السابعة، أنتظرك هناك أنا وأُمي، وأطلب من الفندق المجاور عشاء فاخراً.

قبل السيد أسعد الدعوة، وركب مركبتهُ، وركب الشاب وأُمهُ مركبة أخرى.

في الساعة الرابعة، مضى للاجتماع بصديقهِ الشاب. لما رآه هذا، قال:

— أحسنت في مجيئك اليَّ، أيها الصديق، فإن عندي أموراً دقيقة ما كنت أودّ أن أُطلعك عليها كتابةً...

اجاب السيد أسعد:

— هذه الامور الدقيقة تتعلّق — ولا ريب — بمسألة المعلومات التي شئت أن تتكرَّم بها عليَّ.

— نعم... قد بلغني أن الخطيب وأُمهُ عندك...

— نعم. لكني، وإن أكن قد وعدت بعقد الزواج، فأنا مستعدٌّ لنقض ما وعدت...

— أراك ميالاً الى هذا النقض.

— نعم، ولا أكتمك، أيها الصديق، أني صرت غير مطمئن الى هذا الزواج.

— أنا لا أكتمك أن نقضهُ أولى!

– إذن معلوماتك غير حسنة ؟

– لا، بل هي على غاية ما يرام. قد كتبت اليك ان أسرة « الناجح » من أفضل الأسر. لكن...

– وبعد لكن ؟

– الخطيب النازل عندك ليس هو من أسرة الناجح؛ وبما أنهُ ليس في هذه البلاد إلا أسرة واحدة تُدعى بهذا الاسم، فأنا أخبرك بكل أسف، أن هذا الشاب حاول أن يخدعك...

هتف اسعد قائلاً :

– يخدعني...

– نعم ! وان شكري الناجح، الوارث الوحيد لهذه الاسرة، هو الان في مراكش. لذلك تنكّر هذا الشابّ بهذا الاسم الكريم. بلغني أن أمّ هذا الماكر نزلت معهُ في القصر عندك؛ مع أنّ الأم الحقيقيّة مصابة بالفالج، كما أخبرتك برسالتي، وأنا أحقّق لك انه لا يسعها المجيء الى هنا.

فتح أسعد عينيهِ وهتف :

– اذن نحن أمام لصّين !

– نعم، ولصّان عصريّان ماهران ! إن اللصوصية تقدمت في أيامنا تقدماً مُدهشاً. ترى اللص لا يترصّدك في إحدى الغابات، بل يدخل عليك في عُقر منزلك، ويجلس معك الى مائدتك، بين أهل بيتك، ويخطب اليك فتاتك؛ فهو أشبهُ بلصوص الروايات الموضوعة.

– بحقك ! لا تهزل ! هـذا أمرٌ هائل ! وأنا ارتجف عند رؤيتي هذا الخطر الذي تعرّضت لهُ ابنتي، وذاك العار الذي أوشك أن يُعلن... لكن، لا ! لا ! لا أشاء أن يفتضح هـذا السرّ، كي لا أُنغصّ حياة وحيدتي عفيفة، فلا بدّ من إبقائهِ مكتوماً..

— الامر سهل : ما عليك إلّا أن تُسمع هذين اللصين أنك مطّلع على كل شيء، فيطيران كعصفورين، خوف الوقوع في يد العدل... ضربةُ مكنسةٍ تكفي للنجاة منها...

— نعم... نعم... أصبت...

— لكن، كن ذا دهاء وفطنة : فإن أمثال هؤلاء اللصوص يُخشى شرُّهم.

— كن مطمئن القلب، فأنا قادر على الدفاع عن نفسي... لست أخشى إلّا شيئاً واحداً، ألا وهو العار... آه! يا عزيزتي عفيفة!... أنا، أنا المذنب الاثيم!

— الظاهر انك انت الذي اخترت هذا الخطيب...

— نعم!

— اين وجدتهُ؟

— أحد سماسرة الزواج دلّني عليهِ... بربّك لا تلمني! كفاني عقاب! إني أسألك وأرجو منك أن تكتم هذا الامر كلّ الكتمان...

— نعم أعدك بالكتمان، على شرط أن ترفع أمر هذا السمسار الى رجال الشرطة؛ وانا أرشدهم الى ذينك اللصّين... كن هادئ القلب ولا تخش بأساً؛ فأنا لا أذكر اسمك ولا أدع أقلّ عار يلصق بك أو يعلق بفتاتك. لا تقل الاسم الحقيقي لهذا اللصّ، فإنك تجهلهُ؛ حسبك أن تطلعني على عنوان مسكنهِ في هذه المدينة؛ ورجال الشرطة يتدبّرون الباقي...

تردّد أسعد في الجواب.

قال لهُ النائب :

— ذلك أمرٌ واجب عليك؛ اذ لا يجوز لك أن تدع هذين الخبيثين يحاولان أيقاع غيرك في ما كدت تقع أنت فيهِ.

اجاب اسعد :

— أصبت ! عنوانهُ « شارع ك ، الرقم ٢٥ . »

قال :

— هما ينتظران رجوعي اليهما في الساعة السابعة .

— لا تذهب اليهما .

— بلى ! لا بدَّ من ذلك ! قلت لك لا أُريد أن ينكشف الامر ، خوف الوقوع في العار !

— سأملك نفسي وأكظم غيظي ، وأقول لهما بكل هدوء إني قد اطَّلعت على حالتهما ، وأفهمهما أن يتواريا في الحال . . . نعم لا بدَّ من أن يتمَّ الامر على هذا الاسلوب . لا أُريد أن يتدخل غريب في هذه المسألة . . . أنا أخشى العار ! أخشى العار !

حنى الصديق رأسهُ : لانهُ كان عارفاً بما عند اسعد من الصلابة والعناد .

قال :

— إفعل ما بدا لك ؛ لكني أقول لك ثانيةً : كن فطناً . اذا رأيت نفسك في حاجةٍ اليَّ ، فلا أتأخر عن الاسراع اليك . أنا ، بعد حين ، أمضي الى منزلي : فيسعك أن تكلمني بالهاتف .

— لك الشكر ، ايها الصديق . . . لك الشكر . . .

خرج والد عفيفة مصدَّع القلب ، ذليلاً ، ساخطاً ، وهو يقول في نفسه :

— ترى ! هل وصلت ساعة الدفاع تلك ؟ . .

ثم عاد الى عناده فقال :

— ما لي وهذه الهواجس ! لم يكن أمين الحكيم أميناً ، بل خائناً . أنا لم أُخطئ في ما صنعت .

عند الساعة السابعة قرع أسعد باب مسكن شكري .

أسرعت السيدة سلمى وفتحت وهتفت :

— أهلاً وسهلاً ! إنك — والحقّ يُقال — مُنعمٌ في التدقيق !

رأت الاضطراب في وجه أسعد ، فلم تعبأ ، بل واصلت الكلام ، وقالت :

— أمّا ولدي ، فقد تركني في أحد المخازن ، ورافق بعض أصحابه ، والى الان لم يرجع .

سارت بالسيد اسعد الى البهو ، وأرتهُ الحاجات التي اشترتها ، وقالت :

— انظر هذه الظلة ، فهي لعزيزتي عفيفة .

ثم أقبلت تتكلّم عن العشاء وقالت :

— قد أعددت كل شيء ؛ تفضّل وانظر .

دخلت بهِ الى حجرة الطعام وقالت :

— أيذن لي أن أقدّم لك كأس خمر . . .

صبّت خمراً في قدحين ، وتناولت احدهما وهتفت :

— على ذكر عفيفة وشكري !

لكنها لم تشرب ، بل بلّت أطراف شفتيها .

تناول أسعد الكأس ، دون تفكّر ، وشرب جميع ما فيها .

قالت سلمى :

— الان أُسمعك شيئاً من الموسيقى ، ريثما يعود شكري . أنا أعزف بالبيانو ؛ ولكن هيهات ان تكون لي مهارة عفيفة .

عادت بهِ الى البهو . رافقها وهو لا يجيب إلّا بكلمة تشكّر . وقد ملك النفس ولم يشأ أن يُظهر الغضب قبل وصول ابنها .

جلست الى البيانو ، ودقّت تلك الأُغنية التي كانت تطلبها من عفيفة في القصر .

جلس السيد اسعد على كرسي ، وتظاهر بأنهُ مُصغ اليها بأتمّ خشوع.
ما هو غير حين ، حتى مال رأسهُ الى كتفهِ ، وأغلق عينيهِ .
انتهت السيدة سلمى من العزف ، فلم يصفّق لها .
التفتت ونظرت اليهِ ، فغمغمت قائلةً ، وهي تضحك ضحكاً جهنميًا :
— قد تمّ الامر ، قد تمّ !
خرجت من البهو الى غرفة ثانية ، فيها آلة هاتف ، فتناولتها وطلبت رقماً خاصًا ، فأُجيب طلبها ، فهتفت :
— هيا ! . . . أنت شكري ؟
— نعم ، أنا هو . . .
— يمكنك أن تبدأ حالًا . . . الطريق حرّة الى نصف الليل .
— لله درُّكِ !
— هل أنت مستعدّ ؟
— السيارة أمامي ؛ ها أنا اركبها حالًا .
لا تنسي أن تركبي القطار وتفرّي الى المدينة ، كما اتفقنا ، وغدًا أُوافيك الى هنالك .
— نعم ! كن فطناً ، ولاقني غدًا بالمطلوب . . . عجّل الآن وكلّم عفيفة بالهاتف وقل : قد فاتنا القطار ، واننا نعود اليها غدًا صباحاً . . . ولتنم مطمئنة ! ولا تدعها تزعجك في عملك !
— ثقي بالنجاح .
— حسن ! الى الغد !
— الى الغد !
تعجّلت السيدة سلمى لبس ثياب السفر . مرّت بالسيّد أسعد ، وهو لا يزال راقدًا ، وحيّتهُ مسرورة ، وخرجت من المنزل وأغلقت الباب خلفها .

وصلت الى الطبقة السفلى ، فقال لها البواب :

— أتى رجل وسأل عن ولدك . . .

— نعم ، وقد رأيتهُ وأجبتهُ عن ولدي .

— اذن هو قد خرج ؟

— ربّما . . . مساء خير . أنا عائدة الى القرية ، وأخاف أن يفوتني القطار .

سارتْ معجّلة ، واستوقفت مركبة وركبت ، وقالت للحوذي :

— الى محطة ب . . سرْ في عجل !

٧

جاء مدير معمل السيّد أسعد لمقابلة الآنسة عفيفة . كان هذا رجلًا فاضلًا ؛ ولو كان مُطلق اليد ، لما حدث في المعمل اقلّ خلاف .

قالت لهُ عفيفة :

— ابي سافر الى المدينة . . . ، وهو يعود هذا المساء ليقابل زعماء العملة ؛ فهل يمكنك ان تنبئني بما ستكون نتيجة المقابلة ؟

تردّد المدير في الجواب ؛ لكنْ عفيفة ألحت عليهِ بأن يجيب ، ووعدتهُ بأن تكتم الامر عن أبيها .

قال :

— انا ، يا سيدتي ، مضطرب الخاطر : إنّ عملتنا في هياج شديد ؛ من اللازم أن نتساهل معهم ؛ لكنْ سيدي ، أباك ، لا يُريد أن يوافقني على هذا الرأي . . . هو عازم على ان يعاملهم بقسوة وعنف . طلب مني ان اطرد

أولئك الذين يسميهم زعماء الاعتصاب ، وان أقفل المعمل ، اذا لم يخضع الباقون . . .

— أمتحقق انت ان تلك هي نيّات أبي ؟

— أمرني بأن أقدّم له لائحة باسماء الزعماء .

تأثر قلب عفيفة كلّ التأثر ، وأدركت أنّ أباها قد خدعها ، اذ وعدها بأنهُ سيرتب الامور بحسب مبتغاها ، فقالت للمدير بكلّ رزانة :

— ابي لا يطرد أحداً ، وسيتساهل معهم الى الحدّ الذي تراهُ لازماً .

— أنا مرتابٌ من ذلك ! وواثق بأن أباك لا يعود عن عزمهِ . إنّ ما حدث للحوذي مع ذينك العاملين الوقحين ، سيزيد في تصلّب ابيك .

— من أطلعك على ذاك الحادث ؟ . . .

— عرفت الخبر من الحوذي . هو عازم أن يُقيم الدعوى عليهما . أشرتُ عليهِ بأن يلزم الصمت وان ينتظر رجوع أبيك . . . أنا الآن أسألك أن تغضّي الطرف عن ذلك ، ولا تطلعي أباك على ما حدث .

— تلك هي نيّتي . انّ ذينك العاملين كانا في حالة السكر .

— نعم ، فهما بالشفقة أولى . اذا رُفع الامر الى الحكومة ، أخشى أن يتعصّب لهما جميع العملة ، فتكون العاقبة وخيمة .

ظهر القلق في وجهِ عفيفة فقالت :

— لا ريب أن الحوذي أخبرك كيف أُنقذتُ من ايديهما ؟

— نعم ، قد تخلّصتِ بتدخّل وديع . ولا أكتمك ان ذلك زادني دهشاً . . . فقد كنتُ أحسبُ ان هذا الشاب . . .

قطعت عفيفة عليهِ الكلام ، قالت :

— نعم ، هو وديع . وإخالك تعرف أُسرتهُ !

— نعم ، يا مولاتي ، هو وديع الحكيم . . . وقد عرفتهُ منذ طفولتهِ . . .

قلتُ لكِ انّي كنت أحسبُ هذا الشابّ ضعيفاً، لا بأس لهُ؛ وها هو قد أتى، في إنقاذك من ذينك العاملين، عملًا لا يُتوقّع من أمثالهِ.

تبسّمت عفيفة وقالت:

— هو من المدينة... ؛ وأنت تعلم، كما انا أعلم، أنّ أهل هذه المدينة جدراء بإتيان المعجزات.

ابتسم المدير بدورهِ وقال:

— عجبتُ ايضاً من مخاطرتهِ بنفسهِ في سبيلك.

دهشت عفيفة من كلام المدير وقالت:

— هل كان هنالك ما يمنعهُ عن الاسراع لانقاذي؟

نعم، يا سيدتي، وقد كان من اللازم ان تكوني مطّلعة على ذلك المانع؛ ولا بدّ من ان يكونوا قد اخبروك بما حدث في المدينة... من نحو عشرين سنة... أبو هذا الشابّ كان امين الصندوق عندنا. قلت عندنا لاني كنت حين ذاك قد انتظمت في خدمة ابيك، وكنت أعرف امين الحكيم؛ لهذا قلت اني عرفت مُنقذك منذ طفولته...

كانت عفيفة تسمع هذه التفصيلات بفروغ صبر، وفطنت للحال الى ذلك السرّ الذي لم يُرد وديع ان يكشفهُ لها، فاشتدّ بها الشوق الى معرفتهِ، فقالت:

— قصّ عليّ حالًا ما جرى من تلك العشرين سنة.

قصّ عليها المدير خبر تلك المأساة، وأطلعها على براءة امين الحكيم من الذنب الذي نُسب اليه؛ لكنهُ عذر سيدهُ وقال:

— أبوك أخطأ في حكمه؛ لكنّ خطأهُ كان عن سلامة نية؛ وأنا متحقّق ذلك، وأنتِ تعرفينهُ؛ ألستُ مصيباً بما أقول؟ هو مُعتقدٌ أنهُ لا يخطىء في ما يفعل.

تصدّع قلب عفيفة ، وقالت ، وهي تتنهّد :

— اذن قد يكون ضمير أبي مُثقَلًا بجرم هائل ، جرم قتل برىء ! الآن أدركتُ السبب الذي من أجلهِ لا يريد أن يرى وجه هذا الشابّ !

— نعم ، يا سيدتي ، وقد اطلعتِ الآن على سبب دهشي . حين أفكّر في أن جميع العملة قد هاجوا على هذا الشاب لانقاذه لك . . .

انتصبت عفيفة وقالت :

— نعم ! لا بدّ للعامَلين من أن يكونا قد أخبرا رفقاءهما بالامر ، وأغضباهم على هذا الشاب . . . وحينئذٍ . . .

أدركت عفيفة الخطر المحدق بذاك الذي يتّمهُ عناد أبيها ، فقالت بجزم :

— لا أشاء أن يُمسي هذا الشاب هدفاً للاخطار بسبب إنقاذه لي ؛ فغدًا أحضر اجتماع أبي بالعملة ، فيُرتّب كلُّ شيء بحسب مقتضى العدل !

أنا أُفوّض اليك أن تُذيع على جميع العملة أني سأُنيلهم كلّ حقّ .

تأثّر المدير من حزم تلك الانسة الشريفة ، فقال :

— نعم أُذيع عليهم ذلك .

— سمعتَ ؟ أجيز لك أن تخبرهم بذلك ، بل آمرك أمرًا . . .

رافقت المدير الى الباب وقالت :

— عُد الى المعمل حالاً ، وابذل وسعك في تهدئة الخواطر .

خرج المدير ، ونادت عفيفة خادمة غرفتها وقالت :

— أسرعي الى الحديقة وارجعي بضمّة من أبهى الازهار .

استقدمت الحوذيّ وامرته بأن يُعدّ المركبة ليوصلها الى القرية .

٨

لمـّا ترك وديـع عفيفة ، جدَّ في السير الى حديقة القصر ، وتوغّل بين الاشجار ، وفي قلبـه سعادةٌ فائقة الوصف ، لانه أدّى ما عليه من الدَّين ؛ وآنس عن نفسه صوتاً يقول لـه إن مهمّتك بدأت تسير سيراً حسناً . قال في ذاته :

— أماه ! أصبت بقولك لي ان تلك المهمّة تُنال بواسطة عفيفة ! لو تعلمين بأيّ لطف كلّمتني ، وبأيّ نظر عطوف نظرت اليّ ! ولكن انت عارفة بهذا ، وقد رأيتِ جميع ذلك وشهدتِ كل شيء ، لانك كنت هناك الى جنبي ، بل أنت أبداً بالقرب مني ! أنت تعرفين أيضاً أنها ستكون عادلةً في حكمها ، اذا اطّلعت على ذلك الامر الذي لم أجرؤ أنا على كشفه لها ، وأنها ستلين ذلك القلب الصخري ، كما بشّرتني أنت ووعدتني !

بعد أن ناجى أمّـه بجميع ما كان يخفق في قلبه ، أخذ طريق « البيت الاخضر » ليكتب الى عرّابه ويشكر فضلهُ .

كان في طريقه يسير الهوينا ، وقد توقّف في جميع المواضع التي شاهدتْ ماضي تعسه ، وناجاها قائلاً :

— انظري إليّ ! لقد فرّ عني كل حزن ، وعمّا قليـل يزول عني ذلك اللقب المملوء عاراً ، لقب « ابن السارق » !

مرّ بالمقبرة فدخل اليها . وكان ابوهُ هناك ؛ فأن أمّهُ ، قبل موتها ، نقلت رفات تلك الضحيّة الى الارض التي سترقد هي ايضاً فيها .

كان من الواجب على الابن أن لا ينسى ذلك الاب الذي كان يتوقّع من زمان طويل ان يُعاد اليهِ شرفهُ !

لما دخل وديع ، سلّم على حارس المقبرة ؛ وكان هذا يعرفهُ ، لأن وديعاً كان يُكثر من زيارة المقبرة ، والحارس يُساعدهُ في العناية بالاغراس المغروسة حول القبرين .

ردَّ عليهِ الحارس التحية ، وهو يبتسم ، وقال :

— عجّلْ وانظر الى القبرين : أظن أنك ستكون مسرورًا .

واصل وديع السير بين صفَّين من شجر السرو ، وهو يقول في نفسه :

— لماذا قال لي « ستكون مسرورًا » ؟ تُرى ! هل علم بما حدث ؟ . . .

وصل الى القبرين ، فأدرك معنى كلام الحارس : رأى ذينك القبرين العزيزين ، وعليهما أزهار نضيرة ، وشاهد شخصاً جاثياً ، فدنا منهُ ، فعرفهُ !

ذلك الشخص هو عفيفة نفسها ؛ جثتْ تصلّي عند قبر ابيهِ ؛ وهي ، هي التي أتت بتلك الازهار .

ضمَّ وديع يديهِ وهتف :

— آه ! يا سيدتي !

التفتت الى الوراء ، ونهضت وقالت :

— لم تُرد ان تقول لي ما يجب عليّ صنعهُ فيكون دليلًا على شكري ؛ لكنّي عرفتُ واطلعت . . . جثتُ اطلب المغفرة من أبيك عمَّا أساء بهِ أبي اليهِ .

دمعت عينا وديع ، وقال :

— عرفتِ إذن ؟ . . .

بسطت عفيفة يدها وقالت :

— أبوك لم يردّ عليَّ : فأجب عنهُ أنت ، وعِدني بأنك تغفر .

أجاب وديع بصوت خافت :

— سأصنع ما تريدين .

دنا الحارس وقال :

— سيدتي ، أرسلني الحوذي لاقول لك انهُ منتظر .

شكرتهُ عفيفة وقالت لمنقذها :

— بعثت الحوذيّ الى منزلك وأصحبتهُ رسالةً أقول لك فيها ما سمعتهُ الان . . . انا عائدة الى القصر . أبي قد سافر الى المدينة ، وسيعود هذا المساء ؛ أنا عازمة أن أستقدمك غداً ، ليطلب هو أيضاً منك السماح .

وجعلت اصبعها على شفتها وقالت :

— صه ! لا تتكلّم ! قلت لي انك تصنع جميع ما أودّه منك !

وظهر القلق في عينيها ، وقالت :

— لديّ أيضاً أمور كثيرة أقولها لك . . . أتريد أن تصحبني في المركبة؟

مشتْ ، ومشى هو الى جانبها ، وقالت :

— أسألك أن أُوصلك الى منزلك ؛ أرجو منك أن تابث فيهِ ولا تخرج منهُ حتى أُرسل الحوذي فيوصلك الى القصر .

— سأبقى في المنزل كما أمرتِ ! لكنّي أودُّ . . .

— تودُّ أن تعرف السبب ؟ السبب هو خوفي أن ينالك أحد بأذى . . . قالوا لي ان العاملين قد أثارا عليك خواطر جميع عملة المعمل ، وأنا لا أشاء أن تعرّض نفسك .

ابتسم وديع دلالة على الثقة ببأسهِ ، وقال :

— كوني مطمئنة ، وانظري إليَّ ، فترى اني ساكن القلب ، بعيد عن كل خوف ! مع ذلك انا مطيع لك كما وعدت .

وصلا الى المركبة ، فركبت عفيفة وأجلست وديعاً الى جانبها ، وقالت للحوذي :

— الى « البيت الاخضر » .

قالت لوديع :

— اذن قد اتفقنا : تلبث في منزلك ، هذا المساء ، ولا تبرحهُ . . . عندي شيء آخر أسألك إياهُ . ألا تريد أن تشتغل .

— نعم ، ولكن ما تريدين أن أشتغل هنا ؟

— ما قولك في « وظيفة » في المعمل ؟

هتف وديع قائلًا :

— عند أبيك ؟

— نعم ، عند أبي ، حتى لا يقوى أحدٌ من الناس على ان يرتاب من براءة ابيك ، وحتى يتحقَّق الجميع أن أبي قد تأكدت لهُ تلك البراءة وأنهُ اراد ان يكفِّر عن إثمه .

طفر الدمع من عيني وديع ، وقال :

— سيدتي ! قد غمرتني بفضلكِ !

— ما كنتُ لاكتفي بهذا ! دعني أصنع ما أُريد .

وصلت المركبة الى البيت الاخضر .

قالت عفيفة :

— غدًا نواصل الحديث . . . أما هذا منزلك ؟

— نعم ، يا سيدتي .

— الى الغد ! لا تنسَ الوعد !

— لا انساه !

نزل من المركبة ودخل البيت ، وهو يقول في نفسه :

— نعم سأذكر الوعد . . . سأذكر كلّ شيء ! كلّ شيء ! ولا أنسى ابدًا !

عادت عفيفة الى القصر .

كانت جامعة لافكارها وحواسها ، وشعرت أنها قد صارت أوفر اختبارًا واعظم رزانةً ، وأن أمامها عملًا نبيلًا يجب عليها ان تقوم بهِ .

كانت تقول :

— هو يتيم ، لا معين لهُ . سأسألهُ غدًا أن يرضى بأن أكون لهُ ولو كأخت . . .

عادت لا تفكّر في خطيبها ، وصار أمر المعمل لديها مسألة ثانوية ، وعزمت أن تقدّم قضاء ذلك الواجب على جميع ما سواه .

كانت تقول :

— يجب على أبي أن يُصلح خطأهُ ويعوّض .

جاءت الساعة الثامنة . كانت عفيفة قد نسيت شكري الناجح كلّ النسيان ، واذا بالخادمة تقول لها :

— جرس الهاتف (التلفون) يُقرع .

أسرعت عفيفة ، فاذا هو الخطيب يكلّمها .

— هيًا ! . . . هذا أنت ، يا عفيفة ؟ . . . أنا شكري . . . لم ندرك القطار ، لذلك لا نعود قبل الغد . . . الجميع بخير ، وكلّ شيء على غاية المرام . . . أبوك مسرور جدًا بالزيارات التي قضاها . . . غدًا تقدّم لك أمي ظُلّة بديعة . . . الى اللقاء . . . نامي براحة وهناء . . . الى الغد ، عند الساعة الحادية عشرة . . .

اضطربت عفيفة من تلك المحادثة السريعة ، فقالت :

— ابي مُنعم في التدقيق ؛ فكيف لم يُدرك القطار ؟ ولماذا يدعني وحدي الى الغد ، وهو مطلع على ما في المعمل ؟ . . . ولمَ لا يكلّمني هو بالهاتف ؟

قال شكري : « الجميع بخير ... وابي سُرَّ بزيارته ... » ما معنى هذا السرور ؟ بمَ أفضى اليهِ صديقهُ النائب ؟ يقول شكري إن الامور على غاية المرام . اذن مشروع الزواج لا يزال سائرًا سيرهُ ... ابي وعدني بأن ينقض العهد ، في المدينة ...

هذه المبهمات كانت في عينيّ عفيفة أشدّ ظلاماً من الليل الذي بسط اجنحته . زادت عفيفة اهتماماً وتفكرًا في شأن التعويض الذي كان يشغل كلّ بالها .

بكرت الى غرفتها ، وقالت :

— النوم أفضل وسيلة ...

قبل ان تأوي الى السرير ، كتبت الى مدير المعمل رسالة تقول لهُ فيها :

« تأخر ابي في المدينة ... فهو لذلك لا يستطيع الرجوع في الوقت المعين للاجتماع ؛ ولكن أنا أنوب عنهُ وأضمن أن أبي يُثبتُ ما نكون قد اتفقنا عليه . »

في تلك الساعة كان وديع ايضاً يحاول أن ينام . كان قد كتب الى عرابهِ رسالة طويلة ، كشف له فيها جميع مكنونات قلبهِ ، وأطلعهُ على آمالهِ وسعادتهِ .

كان سرورهُ في ذلك المساء عظيماً .

قالت لهُ راحيل :

— نعم ! نعم ! أنا فاهمة سبب سرورك : هي سيدة القصر ... كتبتْ اليك ، وأركبتك في مركبتها : ما عسى ان تكون نتيجة كلّ ذلك ؟ ما رأيتك في حياتي أعظم منك الآن فرحاً ؛ آمل أن تبقى ابداً في هذا الابتهاج .

تناول وديع عصاهُ وجعل يتأمل فيها مسروراً .

قالت راحيل :

— مـا أشدّ حبّك لهذه العصا ! أنا أشارط أنها هديّة من عرّابك . . . ؟ أظن أنك ما سافرت الى المدينة الّا في طلبها . هي — ولا شكّ — عصا ساحر .

هزّ بطرس رأسهُ وهو يضحك سروراً ، وقال :

— نعم ان في هذهِ العصا قوّة عجيبة : فهي تُدخل السرور على قلبي ؛ والبرهان . . .

اجابت راحيل :

— نعم ، وفرح قلبك ظـاهر في وجهك . ما أشدّ سروري بسرورك ! كنت أظن أنك عدتَ لا تعرف أن تضحك .

صعـد وديع الى غرفتهِ . كانت الساعة التاسعة . حاول ان ينام ، فلم يستطع ، فأنّ النافذة ، في تلك الليلة ، كانت تجذبهُ اليها : منها يسعهُ ، على ضوء القمر ، أن يرى القصر . . .

جلس متكئاً على النافذة ، واستمرّ طويلاً ، طويلاً . . .

فيما هو يتأمل ، في ذلك السكون ، حمل اليه الهواء رنين جرس ساعةٍ جداريّة .

عدّ الدقّات ، وقال :

— إحدى عشرة . . . الساعة الحادية عشرة ، في المعمل . . .

عرف ذلك الرنين ، فإنّ للاجراس ، كالبشر ، أصواتاً ولهجات . . .

قال :

— يجب الان أن أنام .

مدّ يده ليُغلق النافذة ، سمع حركة ، توقّف ونظر ، فرأى سيارة في الطريق مارّة ، وهي آتية من القرية وذاهبة الى المحطة .

تبعها بنظره، فارتعش فجأة.

تحوّلت السيّارة عن طريق المحطة وسارت جهة القصر، فقال :

— هو والد عفيفة راجع.

ثم فكّر فقال :

— لا. قالت السيدة عفيفة إن أباها سيعود في القطار... السيد أسعد لا يسافر عادةً في سيّارة... إذن مَن هو المتوجّه الى القصر، في مثل هذهِ الساعة ؟

استولى على وديع الاضطراب، فقال :

— يجب أن أعرف... السيدة عفيفة وحدها... لعلّ هذا خطرٌ يتهدّدها، فإن أباها قد أوجد لهُ أعداء كثيرين.

ذكر وعدهُ بألّا يبرح البيت، فقال :

— نعم، نعم ؛ ولكن من اين لعفيفة أن تعرف بمغادرتي للبيت ؟

وثب الى عصاهُ وابتسم لها قائلاً :

— اذا كنتِ معي، فلا أخشى أحداً !

نزل السلّم بهدوء، فتح الباب بسكون، كي لا تستيقظ راحيل.

لمّا صار في الخارج، أطلق ساقيه للريح.

كانت السيّارة قد تحولت فجأة وسارت جهة الشمال في طريق تؤدي الى الحديقة، وجرتْ نحواً من مائة ذراع، ووقفت.

نزل منها رجل عليهِ ثياب سفر، وقال كلمةً للسواق، وتوغل بين أشجار الحديقة. ثم ظهر أمام باب القصر.

كان السكون سائدًا في القصر، وجميع من فيهِ نياماً.

اخرج الرجل من جيبهِ مفتاحاً وعالج الباب هنيهة، ففتح.

كان هذا الرجل قد ألبس قدميهِ خفَّين من لبد، وتجهَّز بمصباح كهربائي. صعد في السلّم، ولج الدار ودنا من مكتب السيّد أسعد.

كانت عفيفة، بعد أن اجابت شكري بالهاتف، تركت باب المكتب مفتوحاً نصف فتحة، فلم يكن لهذا الزائر الليلي إلّا أن يدفع الباب بيده.

لمّا صار في الداخل، مشى توًّا جهة الخزانة الحديدية، وتلمَّسها، وفحصها، فابتسم وقال:

— حسن .. هذا ما كنت رأيت ... بحث في جيب معطفه، وأخرج آلاتٍ وعكف على العمل.

لبث يعالج الخزانة نحوًا من ساعة، حتى فتحها، فأسرع ومدَّ يديهِ الى المال المبتغى. لم يكد يلمس تلك الاوراق المالية، حتى أحسَّ بوطء داخلٍ وسمع صوتاً يصيح من ورائهِ:

— ويلك، يا تعس!

إلتفت، فاذا هو أمام السيد أسعد قاهر!

منذ حين، بينا كان اللصّ يعالج الخزانة، سُمع في ساحة القصر صوت خفيف، لم يفطن اللصّ لـهُ. ذلك الصوت هو صوت سيَّارة أخرى نزل منها السيد أسعد وأسرع توًّا الى مكتبه.

كيف استطاع أسعد أن يستيقظ من رقادٍ لا ينتهي وقتهُ إلّا بعد ساعات طوال؟

تمَّ لهُ ذلك بواسطة النائب. إنَّ هذا الصديق لم يطمئن الى نتيجة مقابلة أبي عفيفة للسيدة سلمى وولدها، فأسرع الى إدارة الشرطة وطلب منها أن تبثّ العيون سرًّا حول ذلك الفندق.

اسرع شرطيَّان ماهران، وشاهدا السيّد أسعد داخلًا الى الفندق، ثم أبصرا السيدة سلمى خارجة وحدها، فأدركا ان السيد أسعد بقي في البيت.

دخلا على البوّاب ، فصعد بهما الى الدار التي استأجرها شكري ، ففتحا الباب ، ودخلا البهو فوجدا السيد أسعد في نوم غرق . أيقظاهُ من ذلك الرقاد الصناعي ، بكلّ صعوبة ، ففتح عينيهِ واستمرّ حيناً حتى أدرك ما حصل لهُ ، وعرف ان السيدة سلمى قد سقتهُ مخدّرًا كي يخلو لولدها الجو ، فيسرع الى القرية ويلج القصر فيسرق او يقتل ! . . .

لم يُطلع الشرطيين على فكرهِ مخافة العار ؛ بل صرفهما شاكرًا . لم ينتظر ساعة سفر القطار ، بل تعجّل ركوب سيّارة ووعد السائق بجلوان كبير .

سارت السيارة تسابق الريح . لكثرة اضطرابهِ وعجلتهِ ، نسي ان يكلّم ابنتهُ بالهاتف ليُطلعها على الامر .

أمّا عن اضطرابهِ ، مدّة ذلك السير ، فحدّث ما شئت . خُيّل مرارًا أنهُ يسمع صراخ عفيفة تستغيث !

وصل الى القصر فوجد السكون سائدًا ، فاطمأنّ بالاً . وجّه نظرهُ الى نافذة المكتب فرأى من خلال الستار نورًا ضئيلًا .

دنا وحدّق ، فأبصر ما أبصر ، فوثب الى داخل المكتب ، فألقى اللصّ المال من يده ، وتحفز للدفاع عن نفسهِ ، وخطا نحو أسعد وقال :

— صهْ ! وإلّا طعنتك !

أجابهُ أسعد بزئير هائل . هجم اللصّ عليه .

للحال وثب على اللص شخصٌ آخر ، مسّهُ بعصا في يده ، فصرعهُ الى الارض .

حاول اللصّ أن ينهض ، فمسّهُ ذلك الشخص بتلك العصا مرّةً ثانية ، فسقط مغشيًا عليهِ .

حدّق أسعد الى ذلك الشخص ، فاذا هو وديع ، ابن ضحيّته ، فهتف مدهوشاً :

— هذا أنت!... أنت!...

اذ ذاك دخلت عفيفة وصاحت:

— أبي! أبي!

لم تكن عفيفة قد نامت بعد؛ بل كانت جالسة تفكّر في كيفيّة التعويض عن ذنب أبيها.

لمّا سمعت صوت اللص وصياح ابيها، أسرعت الى المكتب، فرأت شكري خطيبها، مُجدّلاً، وشاهدت دهش أبيها أمام وديع، وأبصرت الخزانة مفتوحة، فادركت كل شيء. فهتفت:

— أبي! اذن نحن أدخلنا الى بيتنا لصاً، وقد أوشك ان يقتلك، وها هو ابن الفقيد المسكين يُنقذك، كما أنقذني في هذا النهار!

القت بنفسها على عنق ابيها وقالت:

— أبي! أصغ اليَّ، وكن مصدّقاً: لقد خُدعت! إن أمين صندوقك كان بريئاً! إن أمين الحكيم كان من صفوة الناس، كابنهِ؛ فعليك أن تُقرّ بخطإك وتعوّض!

أمرّ أسعد يده على جبهتهِ وقال متجمجماً:

— فيما بعد... فيما بعد... دعيني الان، بعد هذه الضربات، أسكّن روعي، وأكنس هذا الخبيث من بيتي...

كان اللصّ قد أفاق، فنهض، وهو يرتجف.

صاح بهِ السيد أسعد:

— فرّغ جيوبك!

مدّ اللص المتنكّر باسم شكري الناجح، يده الى جيوبهِ وقلبها.

رأى أسعد أنها فارغة، وعلم أن اللصّ لم يتّسع لهُ الوقت للسرقة.

أشار أسعد الى الباب وقال:

— أخرج !

خرج اللص مطأطئاً رأسهُ .

قال أسعد :

— من أجلكِ، يا عفيفة ، أعفو عنهُ كي يبقى الامر مكتوماً فلا يدري بهِ أحد . . . إخالك تأذنين لي في ما فعلت ؟

كان فكر التعويض لا يفارقها فقالت :

— نعم ، نعم ؛ ولكن عليك أمرٌ آخر لا تحتاج فيهِ الى طلب الاذن مني .

قال :

— غداً . . . غداً . . . دعيني الآن أُسكن روعي .

التفت الى وديع وقال :

— ايذن لي ، قبل كل شيء ، ان اشكر لك ، يا عزيزي وديع الحكيم ! نعم ، أنا أعرف اسمك ، ولم تغب عن نظري ، منذ موت ابيك . . .

التفت الى ابنتهِ وقال :

— كيف أنقذك انتِ ايضاً ؟

قصَّت عفيفة على ابيها جميع ما جرى لها ؟ وأخبرتهُ خبر ذينك السكرانين ، وكيف أنهما كادا يفتكان بها ، لولا بسالة وديع ومخاطرته بنفسهِ .

قالت :

— بعد كلّ هذا ، تأذن ، يا أبي ، في ان لا يكون منقذنا غريباً عنَّا ، بل تقوم انت مقام ابيه ، وأنا اكون لهُ اختاً . . .

أعاد أسعد كلامهُ السابق ، قال :

— غداً . . . غداً . . . عُد الينا ، يا عزيزي وديع ، غداً صباحاً ؛ فسأكون ايضاً في حاجة الى مساعدتك . . .

٩

في اليوم التالي، اجتمع زعماء العملة في مكتب إدارة المعمل، ساكنين صامتين.

كان قد بلغهم ان الانسة عفيفة هي التي ستأتي وتسمع شكاياتهم، فكان ذلك كافياً لتسكين هياجهم: لانهم كانوا يحترمون تلك الفتاة ويعرفون ما جُبلت عليهِ من كريم الخلال. ما علموا بذنب ذينك العاملين، حتى انهالوا عليهما لوماً وتوبيخاً.

فيما هم منتظرون، دخل البوّاب يُنبئ بوصول السيد أسعد، فتحرّك ساكن هياجهم.

دخل السيد أسعد، فوقف الجميع.

دخلت الآنسة عفيفة، يتبعها شخص آخر. لم تقع عيون المجتمعين على وجهِ هذا الشخص، حتى همس بعضهم في آذان بعض:

— هوذا وديع! مع جلّاد أبيهِ!

ذكروا ما صنعهُ وديع أمس في سبيل عفيفة، فزال دهشهم.

فتح السيد أسعد فاهُ، ولم يكد يتكلّم حتى تعجّب الزعماء.

قال:

— إخواني. نعم، دعوني أُناديكم بهذا الاسم. في هذين اليومين تلقّيتُ دروساً أُريد ان تكونوا أنتم أول المستفيدين منها. أنا، من هذا اليوم

فصاعداً، أتنحى عن المعمل. وقد فوّضتُ الى مديركم أن يمنحكم جميع ما تطلبون ...

نظر الزعماء بعضهم الى بعض متعجبين من تغيّر سيدهم.

واصل السيد أسعد الكلام، قال :

— ان ابنتي تكون ربّة هذا المعمل، واليها يُرجَع في الأمور. أنتم عارفون بحنان قلبها؛ اذن كل شيء سيسير في أفضل طريق.

هتف الزعماء مسرورين.

نعم! نعم!

قال السيد أسعد :

— كان يمكنني أن أدعها تأتي وحدها؛ لكنني، قبل الوداع، شئت أن أقوم أمامكم بواجب خطير...

وأشار الى وديع وقال :

— جميعكم تعرفون هذا الشاب. هو ابن رجل كان مثلكم مساعداً لي، أميناً مخلصاً. بسببي أصابهُ أشدّ مما أصبتم أنتم به. أقرُّ أمامكم بأني قد أخطأت، بل جنيت جناية، اذ أقمت عليهِ دعوى باطلة! الآن أعلن، أمام الجميع، أنهُ كان بريئاً! أطلب المغفرة منهُ ومن ولده، وأسألكم أن تساعدوني في التكفير عن إثمي، وذلك بأن تستقبلوا هذا الابن بالاحترام اللائق بهِ، وأن تسهلوا لهُ القيام بمهمتهِ عندكم.

أنهى السيد أسعد كلامهُ قائلاً :

— إن ابنتي، ربّة المعمل الجديدة، قد أقامت السيد وديع أمين الحكيم ممثِلاً لها في المعمل.

صفِقوا لهذا التعيين، إذا شئتم أن تسرّوني.

صاح الجميع صياح السرور، ومُدّت الايدي لمصافحة وديع وتهنئتهِ.

عانقت عفيفة أباها قائلةً :

— لك الشكر ، يا أبي ، لك الشكر على عدلك وصلاحك . . .

كل شيء تمَّ حسب رغبتها . هي ستطلب ايضاً الى أبيها أمراً آخر ، وسيُجاب طلبها . . .

قالت :

— أبي ، قد غفر الابن ؛ فتعال معي الى أبيهِ ، نطلعهُ على ما حدث .

في ذلك النهار ، شاهـد حارس المقبرة وديعاً جاثياً بين ذينيك القبرين ، وحولهُ السيّد أسعد قاهر وفتاته .

***

ها قد مرَّ على هذه الحادثة خمس سنين وقد صار السيد وديع من أسعد أهل البلاد : يدير الآن معمل السيد أسعد ، ومقامهُ في القصر محترمٌ ومكرَّم .

وقام السيد أسعد مقام ذلك الوالد الراقد في ضريحهِ ؛ وأصبحت الآنسة عفيفة زوجة لمنقذها .

صار السيد شفيق المعلّم يتردَّد الى القصر ، ويقضي ايام الراحة مع السيد أسعد . أصبح كل منهما صديقاً للآخر .

قال شفيق لأسعد :

— سبقت فقلت لك ، ايها الصديق ، إنك ، يوماً ما ، ستدفع ما عليك . ها قد دفعتَ ، وبكلّ سخاء ، وبنوع أبوي . . .

أمَّا تلك العصا السرية ، فهي راقدة في الخزانة . وديع لم ينسها ، بـل

هو يزورها حيناً بعد حين، ويبتسم لذكر تلك الانتصارات الباهرة التي نالها بواسطتها. ولم يكشف قط لاحد سرّ تلك العصا. ولكن قد انتشرت الكهربائية، فاصبح العارفون يُدركون ما أودع العلّامة شفيق في جوف تلك العصا من القوّة الخفية (١).

امّا اللصّ الذي تنكّر باسم شكري الناجح، وتلك المرأة الكاذبة، التي ادّعت أنها امّهُ، فهما الآن يقضيان أيّامها في ظلمات السجون.

لم ينس وديع ذينك القبرين، بل هو يزورهما في سبت كل اسبوع. وكلّما جثا بينهما، يسمع من داخلهما مناجاة الحبّ والشكر.

---

١) قرأنا في مجلة «الحارس»، نسخة نيسان، ١٩٢٧: اخترع بعض الكهربائيين آلة صغيرة، تستطيع، بمحض الملامسة، تسكين اقوى رجل وإعجازهُ عن كل حركة. القصد، تسليح رجال الشرطة بها، ليستخدموها في القبض على الاشقياء. يضع البوليس بطاريتها في جيبه، ويلمسها في يده، فيصبح، امامهُ، اقوى الجبابرة كالحمل الوديع.

الروايات التمثيليَّة

البرامكة	للاب رباط اليسوعي	٣ غ ذ
ابن وائل	للاب شارل ابلا اليسوعي	٣ ″ ″
غفران الامير	للخوري حنا الرحماني	٣ ″ ″
في سبيل التاج	لحليم دموس	٥ ″ ″
الملك هِرَقْل	للخوري مارون غصن	٤ ″ ″
الاميران الاسيران	للخوري يوسف العمشيتي	٣ ″ ″

تباع في المطبعة الكاثوليكيَّة

الكاهن	للخوري مارون غصن	٥ ″ ″
الشبح الهائل	لهُ	٥ ″ ″
رواية الملكين (أوبرا)	لهُ	٣ ″ ″
فتاة الناصرة	للخوري بولس البستاني	٣ ″ ″

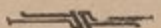

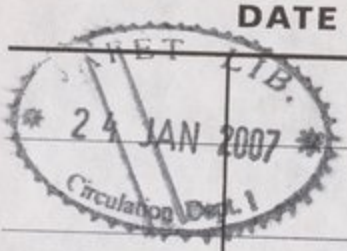

DATE DUE

24 JAN 2007
Circulation Dept.

غصن ،مارون
دفاع ابن عن شرف ابية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037938

American University of Beirut

G42d

General Library